الفصل الثانى

تقاليد الحرب والجهاد

- غزوات الرسول الكريم.
- مواقف التسامح... ومشاهد الرحمة.
- تأكيد الحقائق.. وتفنيد الأكاذيب.

«إذا كان السيف وانتشار المبادئ به.. فالغربيون آخر من يتكلم عن ذلك. لأن ما اقترفوه فى الحروب من جرائم وآثام لا تنتمى إلى خلق أو دين».

(الداعية الإسلامى الشيخ محمد الغزالى ـ رحمه الله)

«كلمة «الإرهاب»(*) هذه التى تدوخ الدنيا هذه الأيام.. ويطاف بها على الوديان والجبال.. وعلى الشواطئ والسهول.. ليذل بها الإسلاميون.. هى شرف للإسلام».

(المفكر الإسلامى الدكتور محمد سليم العوّا)

(*) تنويه:

يقصد الدكتور محمد سليم العوا بكلمة «الإرهاب» الواردة فى هذه المقولة ـ التى نقلناها عنه من كتاب «الإسلام والعصر» (ص: ٢٩) «إرهاب العدو» بمعنى تخويفه حتى لا يبادر بالعدوان على المسلمين، ويراجع نفسه قبل الإقدام على مثل هذا العمل الذى قد يكلفه كثيراً نظراً لما أعده له المسلمون من قوة يردون بها العدوان.. ويوضح الدكتور العوا أن إرهاب العدو هو بمثابة «ضرر أصغر» يمنع وقوع «الضرر الأكبر» المتمثل فى اندلاع القتال وما ينجم عنه من خسائر وأهوال. ووردت كلمة الإرهاب صريحة بهذا المعنى فى القرآن الكريم: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ولا يشير فى حديثه إلى كلمة «الإرهاب» التى ابتدعها الإعلام الغربى ونتداولها بدورنا فى إعلامنا دون تحديد واضح لمدلولها.. فهى تعنى القتل العشوائى والتدمير وترويع الآمنين.. وهذا ما ينهى عنه الإسلام بنصوص واضحة فى القرآن الكريم والحديث الشريف.. ويوضح الدكتور العوا فى نفس الكتاب (ص: ٧٤) أن الإسلام هو العدو الأول لهذا النوع من الإرهاب.. بينما يذهب المغرضون من أعداء الإسلام إلى إلصاق هذه التهمة به باعتباره ـ من وجهة نظرهم ـ مرادفاً للإرهاب. من هنا يتضح إلى أى مدى تحدث بلبلة للفكر بسبب اختلاط المفاهيم وعدم توضيح مدلولاتها على وجه التحديد، وهكذا يواصل أعداء الإسلام اتهامه بما ليس فيه، فعندما تخلى المسلمون عما يتطلبه «الإرهاب» بمعنى «الردع ـ deterrence» كما هو شائع فى الإستراتيجية العسكرية الحديثة، فقد أمر الله ـ تعالى ـ المسلمين بالتزود بأسباب القوة التى ترهب أعداءهم.. فإذا بهؤلاء الأعداء يستخفون بهم لتبعيتهم وضعفهم.. فباتوا يتجرءون عليهم وعلى دينهم ويتهمونهم معًا بالإرهاب بمعناه «الآخر» الذى يعنى العنف والتطرف وينبغى القضاء عليه.

ـ لمزيد من التفاصيل انظر: د. محمد سليم العوا «الإسلام والعصر» ـ حوار محمد بركات ـ مكتبة الشروق الدولية ـ القاهرة ـ طبعة أولى ـ يوليو ٢٠٠٧. [المؤلف].

obeikan

تقديم

اتسمت الفترة التى عاشها الرسول الكريم فى مكة منذ نزول الوحى سنة ٦٠٩م حتى بيعة العقبة الثانية سنة ٦٢٢م ـ وهى فترة بلغت ثلاثة عشر عامًا تقريبًا ـ بدعوة الرسول الكريم الناس إلى الإسلام على أساس الحجة والإقناع، وذلك على الرغم مما تعرض له هو وأتباعه من أذى واضطهاد، واضطرار نفر من أصحابه فعلاً إلى ترك ديارهم وهجرتهم إلى الحبشة. **غير أن «بيعة العقبة الثانية» وضعت مفهومًا جديداً للدعوة الإسلامية حين تعهَّد وفد يثرب بالدفاع عن الرسول وحمايته حين ينتقل إليهم. إذ حددت هذه البيعة بداية تشريع الجهاد فى الإسلام. كما قررت مظاهر الطور الأول من أطوار «ولاية الحرب» وآداب الجهاد فى الإسلام أيضًا**، فنزل قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠].

وبينما كانت الشروط التى بايع عليها الرسول الكريم **«أهل العقبة الأولى» شروطًا خُلقية دينية** ـ إذ بايعهم على عدم الإشراك بالله، وتجنب السرقة والزنا وقتل الأولاد وإتيان البهتان، وعدم معصية فى معروف ـ فلم يشترط عليهم فى هذه البيعة عداء أحد ولا منابذته للحرب. فإن طبيعة «بيعة العقبة الثانية»[٣٥] تتضح فيما رواه «عبادة بن الصامت» وهو ممن وقع عليه اختيار وفد يثرب ليكون من النقباء الاثنى عشر الذين طلب الرسول اعتبارهم كفلاء على قومهم ـ روى مفهوم **«الحرب»** فى هذه البيعة **قائلاً**: «بايعنا رسول الله بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عُسْرنا ويُسْرنا ومَنْشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا. وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم . . » وتحددت بذلك منذ البداية «تقاليد الحرب والجهاد فى الإسلام».

إذًا لم تكن بيعتا العقبة الأولى والثانية إلا تمهيدًا للهجرة النبوية ـ فإذا كانت «البيعة

الأولى» لبَثِّ النظم والقيَم الإسلامية التى يقوم عليها بناء الدولة القويمة الفاضلة، فإن «البيعة الثانية» كانت لتأسيس الدولة وتحديد قواعد الدفاع عنها ـ فالبيعتان تضمنتا دعامتى تكوين المجتمع الفاضل **«محاربة الفساد فى الداخل» و «محاربة العدو فى الخارج»**. وكانت الهجرة أمرًا لازمًا لتنفيذ أحكام الإسلام الشرعية فى الأسرة والمدينة.. وشَرَعَ الرسول الكريم غداة نزوله بالمدينة على التفكير فى أن يؤمِّن المسلمين على دينهم ويكفل لهم الحرية فى عقيدتهم. ولم يكن من خوف على المسلمين فى مدينة اعتصم أهلها بالإسلام وأصبحوا مع المهاجرين كثرة تستطيع أن تتصدى لليهود من سكانها ولمن ظل على الشرك من أهلها. لكن المؤمنين كانوا قبيلاً من المهاجرين والأنصار من أوس وخزرج، ولا يأمن الرسول أن يمشى المنافقون بالوقيعة بينهم، أو أن تثور الحزازات القديمة بين الأوسيين والخزرجيين. فكان أن دعا المسلمين ليتآخوا فى الله أخَوَيْن أخَوَيْن.. فكانت بداية **«الإخاء الإسلامى»** الذى ربط المسلمين بعضهم إلى بعض أمد الدهر وإلى أبده، فما زال الإخاء يشد نفوس المسلمين بالألفة والتواصى إلى وقتنا هذا على تَفَرّق دولهم وشعوبهم. وكان الإخاء الذى دعا إليه الرسول الكريم فى المدينة هو اللبنة الأولى فى البناء الاجتماعى لحضارة الإسلام، وجعل من جماعة المسلمين قوة متضامنة مكنتهم من الوقوف فى وجه اعتداءات المشركين، وما يضمره اليهود والمنافقين من ضغينة وحقد وترصد لجماعة المؤمنين.

والحكمة من وراء الهجرة يوضحها لنا الشيخ «محمد أبو زهرة»[٣٦] بقوله: «السبب الحقيقى الذى يكمن وراء هجرة الرسول ليس متعلقًا بمؤامرة القتل التى بيَّتَها سادة قريش لنبى الإسلام، فإيذاء المشركين للرسول والمؤمنين بدعوته لم يتوقف ولم يقف عند حد، فإرادة القتل لم تكن هى السبب الباعث المباشر للهجرة، بل إنه مجرد اقتران زمنى ليس فيه سبب ومسبب، بينما يكمن السبب فى أرض مكة، والتى وإن كانت صالحة لتربية الخلية الأولى لأنصار الدعوة، فإنها ليست صالحة لحياة هذه الخلية وقوتها وسيطرتها بحيث تتكون منها دولة الإسلام الأولى، فإن الخلية الأولى تكونت لأنه كان بمكة ضعاف أقوياء فى إيمانهم، ولكنهم قليل بجوار أهل مكة، فكانت غير صالحة لأن تقوم فيها دولة إسلامية، لأن السيطرة عليها كانت للمشركين الذين كان زعماؤهم قد سيطرت عليهم العصبية والرغبة فى بقاء سيطرتهم وألا يحكمها دين غير ما ألفوا مما عبد الآباء.. هذا هو الأمر، ولذلك اتجه النبى إلى الخروج من البلد الحرام. وإن كان

أحب بلاد الله إليه وآلفها له، وهى فى نفسها أرض مباركة وإن كان الشرك يقيم فيها. لهذا أخذ النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى السنتين اللتين سبقتا الهجرة يدعم دعائم تكوين الهجرة. . ».

. . . ثم كانت الخطوة التالية فى تأمين المسلمين وكفالة حرية الدعوة أن يوائم النبى ﷺ بين سكان المدينة من المهاجرين وأهل المدينة من الأنصار واليهود وغيره من المشركين لتقرير مبادئ والتزامات رأى فيها ضمانًا لحرية الدعوة وأمن المسلمين، فأقرَّ حرية الرأى وحُرْية العقيدة وحُرْمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة، وهى مبادئ والتزامات ترى الأطراف الأخرى حاجتها إليها كحاجة المسلمين تمامًا. من هنا جاءت الحاجة لكتابة **«الصحيفة»** أو **«الدستور»** أو **«الكتاب»**، فرسول الله ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة، هاجر هو ومن سبقه ولحق به على بيعة شفوية غير مكتوبة، وهذه البيعة أو العقد أو العهد اتفاق بين النبى وبين من دعوه إلى الهجرة إلى بلدهم من الأنصار، حيث لا توجد تفاصيل كثيرة لأنها تنص على أن ينتقل الرسول وأصحابه إلى المدينة ليعيشوا مع من أسلم من أهل المدينة أحرارًا يمارسون شعائر دينهم ويعملون على نشر الإسلام، وفى مقابل ذلك يتعهد الأنصار من أهل المدينة بحماية النبى وأصحابه وأتباع شريعة الإسلام، ويلتزمون بالطاعة لرسول الله فى كل ما يتعلق بأحكام الإسلام. ولم يكن هذا العقد يتم ويشرع المسلمون فى الهجرة حتى نزلت آية الإذن للمسلمين الذين أخرجوا من ديارهم فى القتال. وبعد أن استقر الرسول وأصحابه فى المدينة مع إخوانهم الذين آووهم ونصروهم، تكونت منهم معًا أمة الإسلام.

وأخذت آيات القرآن تتنزل ببقية الأحكام وقواعد الشرع ومكارم الأخلاق، وكل هذه تنظيمات ينبغى أن تطبق فى أمة يقوم أمرها على ذلك الدين الجديد. فلا بد من أن تنشأ الأمة بصورة واضحة، ولا بد من تحديد شخصيتها وتكوينها وبيان حقوق أفرادها والتزاماتهم وطبيعة علاقاتهم مع من يجاورهم فى المدينة ممن لم يدخل فى الإسلام، وممن يدين بدين آخر غير الإسلام وغالبيتهم من يهود المدينة. وبعد أن دخل الإسلام رجال من القبائل العربية خارج المدينة أصبحت بيعة العقبة الثانية[٣٧] فى حاجة إلى تحويلها من عقد شفهى إلى عقد مكتوب، لذلك جعل الرسول ﷺ يجتمع بأصحابه

ويشاورهم فى الأمر ويتبادلون الرأى، وأملى الرسول ما اتفق رأيهم عليه ـ وهكذا تكون نص الصحيفة أو الكتاب أو دستور المدينة. . هذه الوثيقة التى تقرر حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة. . . وبهذا أصبحت المدينة وما وراءها حَرَمًا لأهلها، عليهم أن يزودوا عنها ويدفعوا كل عادية عليها، وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررت هذه الوثيقة من حقوق ومن واجبات ومن صور للحرية لم يعرفها حينها هذا العالم الذى تعبث به يد الاستبداد بالظلم والفساد.

وفى هذا «الفصل» سوف نسترجع مواقف الحكمة والسماحة ومشاهد العدل والرحمة التى فاضت بها غزوات الرسول الكريم من بدر إلى تبوك وسمو الأخلاق الشريفة لنبى الإسلام فى غمار الحرب والجهاد، ثم نتوقف بعدها أمام ادعاءات وافتراءات الكارهين للإسلام لتفنيد الأكاذيب التى أشاعها المغرضون كدأبهم فى طمس الحقائق بالأباطيل.

***

[وثيقة]

دستور المدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النجار

على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين لا يتركون مفرجًا ـ أى منقلاً بالدين والعيال ـ بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل، ولا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم، أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليهم جميعًا ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن فى كافر، ولا ينصر كافرًا، ولا ينصر كافر على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ـ أى المساواة فى المعاملة ـ غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضًا وأن المؤمنين يبىء ـ يكف ويمنع ـ بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وأنه لا يجير مشرك ما لا لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اغتبط مؤمنًا ـ أى قتله دون جناية ـ قتلاً عن بينه فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه. وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا ـ أى جانيًا ـ ولا يؤويه، وأنه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأنكم مهما أختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله وإلى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا أمن ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ ـ أى يهلك ويفسد ـ إلا نفسه وأهل بيته. وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف، وأن ليهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الأوس ويهود بنى ثعلبة وأن لبنى الشطنة مثل ما ليهود بنى عوف. وأن موالى ثعلبة كأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن

لا ينحجر على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبر هذا، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه. وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين، ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح بصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم. وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر واتقى.

* المصدر: كتاب «محمد» تأليف محمد رضا المكتبة العصرية (ص١٥٧ ـ ١٥٩).

* * *

المبحث الأول: غزوات الرسول الكريم ﷺ

«مواجهة الأعداء والخصوم ... من بدر إلى تبوك»

إذا كانت قريش لم يهدأ لها بال عندما هاجرت فئة قليلة من المسلمين إلى الحبشة، فلم تتركهم يفرون بدينهم وادعين، بل تعقبتهم حتى بلاط النجاشى، فى محاولة منها للقضاء عليهم وإبادتهم، فهل تترك المسلمين وشأنهم فى المدينة بعد أن طاب المقام فيها للنبى وصحبه وأخذ نفوذهم فى الانتشار؟ على الرغم من أن المسلمين رأوا أنفسهم يحيط بهم الأعداء من كل جانب ـ فقريش وحلفاؤها من الخارج، والمنافقون واليهود يتربصون بهم الدوائر من الداخل ـ لذلك كان المسلمون على حيطة وحذر دائمين، يترقبون الانقضاض الماثل عليهم فى أى وقت من خارج المدينة، ويحرزون من الخيانة الكامنة فى داخلها ـ حيث درجت بعض السرايا من قريش الخروج لقطع الطريق والضرب فى الصحراء حتى تبلغ ضواحى المدينة. وقد سلبت سرية من هذه السرايا بعضًا من الإبل من مراعى المدينة فى إطار مسعى قريش تَحَيّن الفُرَص للقضاء على الإسلام ومداهمة المدينة.

.. وجاء الأمر الصريح من السماء بمشروعية القتال دفاعًا عن النفس والدين، فكان من الضرورى أن يُبَادر النبى ببعض الإجراءات على سبيل الاحتياط لمعرفة ما تُبيِّت قريش للمسلمين، من هنا كانت الحاجة والضرورة تدعو إلى إيجاد علاقات ود وصداقة مع القبائل المحيطة بالمدينة، لذلك أرسل النبى سرايا صغيرة للاستطلاع لكشف تحركات العدو والاتصال بالقبائل القاطنة بين مكة والمدينة لضمان حيادها. وكانت الفائدة الأهم التى ترجى من عملية الاستطلاع هذه تتمثل فى إحباط أى هجوم مفاجئ على المدينة، فإذا ما علمت قريش بأن المسلمين على يقظة، فإنها تحجم عن التفكير فى مباغتتهم. وقد أعطى النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الأوامر المشددة إلى السرايا باجتناب القتال.

مبالغة المؤرخين

يوضح الدكتور شوقى ضيف فى كتابه «محمد خاتم المرسلين»[٣٨] أنه من الخطأ والمبالغة أن يذكر مؤرخو السيرة النبوية للرسول سبعًا وعشرين غزوة، وسبعًا وأربعين سرية أى كتيبة حربية ـ الأمر الذى جعل المغرض من المستشرقين يصور حياة الرسول وكأنها كانت للحرب والغزو ونشر الإسلام بالسيف. والصحيح أن النبى ﷺ إنما قاد بنفسه تسع غزوات ـ لم يحارب فى ثلاث منها هى: «الأحزاب وقريظة وفتح مكة» ـ ونضيف إليها غزوة رابعة لم يحدث فيها قتال هى غزوة تبوك ـ ونظرًا لأنه كان يسير فى بعضها للاستطلاع لمعرفة نية قريش فى غزو المدينة، وبعضها كان لنشر الإسلام والدعوة إليه. ولهذا فمن الأفضل أن تسمى «بعوثًا» لا «سرايا». وإلى هذا ذهب الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه «زاد المعاد»[٣٩] ـ عندما أضاف البعوث إلى الغزوات والسرايا. ونحن من جانبنا نستريح لهذا الرأى ـ وبالتالى قُمْنا باستعراض **«غزوات الرسول»** والوقوف أمام أهم الغزوات التى كان لها أثرها فى تاريخ الإسلام ومسيرته من بَدْر إلى تَبوك.

انتصار القلة المؤمنة فى بَدْر

. . . يَكْمُن السبب الحقيقى الذى أدى إلى المواجهة بين المسلمين والمشركين فى بدْر فى رغبة قريش الجامحة فى إبادة قوة الإسلام المتزايدة ـ وليس بسبب القافلة التى مرت بسلام ولم يعترضها أحد بعد أن غيرت مسلكها وخالفت الطريق العام، فسارت بمحاذاة الشاطئ، ووصلت إلى مكة سالمة قبل أن يشتبك الجيشان فى بدر ـ فهذه الرغبة المتأججة فى نفوس مشركى قريش هى السبب الرئيس للمعركة. . ولا يعدو الحقيقة القول بأن المسلمين قد استُدرجوا إليها لحكمة يعلمها الله ـ وقد وصف القرآن الكريم حالة المسلمين النفسية عندما استُدْعوا للدفاع عن كيانهم وعقيدتهم[٤٠]، فقال تعالى: ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٥-٦]. لقد خرجت قريش كلها لمحاربة المسلمين، فكان لا بد لهم من أن يدافعوا عن أنفسهم، وما كان للنبى ﷺ وقد أذن له ربه بالقتال أن يسكت على عدو لن يستريح إلا إذا تمت له

إبادة جماعة المؤمنين هذه الفئة القليلة التى لم يكتمل لها عدة أو سلاح تواجه به جحافل المشركين خرجت معتمدة على الله لوقف هجوم قريش، فما كان من المرغوب فيه أن تبلغ المعركة ديارهم فى المدينة، فلما وصلوا إلى بدر وجدوا جيش القرشيين قد سبقهم إلى هناك رافعًا راية التحدى فى غرور وصلف وتكبر اعتقادًا منه أنه لن يهزم أمام هذه القلة التى تواجهه فى عددها وعتادها ـ ولكن غاب عنهم سلاح الإيمان فى النفوس ومشاعر اليقين بنصر الله فى مواجهة الكثرة الظالمة. وظهرت معونة الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمسلمين فى غزوة بدر ظهورًا أخاذًا، وقد تكون هذه الغزوة فريدة فى تاريخ المعارك والحروب ـ فقد يحدث أن تهزم فئة قليلة فئة كبيرة ـ ولكن هذه الفئة القليلة الغالبة تكون دائمًا مجهزة بالسلاح المتفوق، والجنود الشجعان المدربين أى أن لها من المزايا ما يفوق مزايا الفئة الكبيرة ـ فكفاءة الفئة القليلة تعادل الفَرْق فى العدد وتتمكن من التغلب على أكثر منها عددًا. أما إعجاز غزوة بدر، فالحال على النقيض، الأمر الذى يجعلها متفردة من كافة الوجوه ـ فالفئة القليلة الضعيفة فى العدد والعتاد تقاتل الفئة الكبيرة القوية من كل الوجوه، ثم تنتصر عليها. كان تعداد قوات قريش ثلاثة أضعاف قوات المسلمين، وكانوا جنودًا خبروا الحرب ومارسوها مدربين محنكين، وكانوا مُزوَّدين بالمتاع والعتاد الكثير. بينما كانت قوة المسلمين ثلث عدد عدوهم، وقوام جيشهم فتية ما تدربوا على الحرب ولا خبرة لهم بها مع بعض شيوخ المهاجرين والأنصار، كان بعضهم فقط ـ وليس كلهم ـ أكفاء لمنازلة قريش، أما الفرق فى العتاد فحدِّث ولا حرج. لقد كان الافتقار التام يواجه وينازل الغنى والاقتدار. ولكن الله أيَّد الضعفاء بجنوده ونفخ فيهم روح القوة، ففرت الكثرة الكافرة وانهزمت مدحورة أمام القلة المؤمنة، وجاء الإعجاز الإلهى فى بَدْر جليًا واضحًا.

الابتلاء فى أحد

تفتقر الآراء القائلة بهزيمة المسلمين فى أحُد إلى حقائق تاريخية، لكن الأمر الذى لا شك فيه أن المسلمين قد أصابهم بلاء عظيم نتيجة لعدم التزام فئة من المؤمنين بتوجيهات النبى الكريم، لقد عادت خطيئة أفراد قليلين من جيش المسلمين ـ ترك الرماة لأماكنهم رغم تحذير الرسول إياهم ـ بالوبال على جيش المسلمين بأجمعه، بحيث لم ينج حتى رسول الله ﷺ فقد شُجَّ رأسه وكُسرَت رباعيته، وساح الدم غزيرًا على وجهه

الشريف، وتلك سُنَّة الله فى الكون لم يمنعها من الاستمرار أن رسول الله موجود فى ذلك الجيش، وأنه أحب خلق الله إلى الله.

. . . وللمنافقين فى هذه الغزوة مشهد بارز بعد انسحابهم بما يعادل ثلث الجيش بحجة أن النبى أخذ برأى الشباب بالخروج من المدينة لملاقاة العدو، ولم يأخذ برأيهم بالمكوث فيها. ولكنهم فى حقيقة الأمر لم يكونوا يريدون قتالاً ـ فعادة المنافقين أنهم يرغبون فى أخذ ما فى الإسلام من مغانم والابتعاد عمَّا فيه من مغارم، لكن إرادة الله شاءت تمحيص المسلمين من أخلاطهم من المنافقين ـ وكان فى ذلك خير كثير للمسلمين فى مستقبلهم المشرق بنور الإيمان.

أمَّا عن المشركين من قريش، فالأمر الذى لا شك فيه أنه قد خاب أملهم، فعلى الرغم من إلحاقهم الضرر بالمسلمين، إلا أنهم لم يحققوا النصر الذى كانوا يأملون فيه، ووقفوا عند حدود الأخذ بالثأر لما حدث فى يوم بدر. فهل جاء فى أحداث الحروب عبر تاريخ الأمم والشعوب ذكر انتصار فريق بينما عدوه لا يزال قائمًا فى الميدان لم يفر ولم يستسلم؟ أو عودة جيش منتصر وليس معه أسير واحد من الأعداء الذين هزمهم؟ أو أن الجيش المهزوم لا يلبث أن يقتفى أثر الجيش الغالب فى صبيحة اليوم التالى للمعركة؟ لكن الأمر الذى لا مراء فيه أن المسلمين زُلْزِلوا زلْزالاً شديداً، وتجرَّعوا كأس البلاء. ولكن شتان بين المؤمنين وبين الكافرين، ولقد صور القرآن الكريم هذا المشهد فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]. لقد أراد الله لنبيه وللمؤمنين هذا الامتحان الشديد، والابتلاء العظيم ليكون درسًا وعبرة لمن يأتى من بعدهم من أجيال المسلمين فى الشجاعة والأمل والصبر والقدرة على تحمل الألم ليتعلموا الثقة بالله فى لحظات الشدة والامتحان، فللعدو المشرك أن يزهو بما نال، وليعتبر انتصاره اندحاراً للإسلام، ولكن فلتطمئن أفئدة المؤمنين، فالإسلام باق لن يموت ما دامت الأرض والسماوات ومهما اشتدت الكروب والأزمات.

الأحزاب والخروج من الحصار

كانت قريش تستعد لهجوم جديد على المدينة بعد اتفاقها مع اليهود وقبائل العرب

على توجيه الضربة القاصمة للإسلام، فجمعوا جيشًا عدته عشرة آلاف مقاتل لمداهمة المدينة، ونكثت يهود بنى قريظة عهدها فى اللحظة الأخيرة وانضمت لأعداء الإسلام، فأصبح مركز المسلمين غاية فى الحرج. وترامت الأنباء إلى النبى ﷺ بخبر هذا الجمع الحاشد، فدعا أصحابه واستشارهم فيما ينبغى عمله للدفاع عن المدينة التى كانت محصنة بطبيعتها عدا جهة واحدة اقترح سلمان الفارسى حفر خندق عميق بهذه الجهة. فشرع الرسول الكريم وأصحابه فى حفر الخندق، وشاركهم فى الحفر وحَمْل التراب.. وبينما كان المسلمون يحفرون الخندق، صادف بعضهم صخرة شديدة استعصت عليهم، فجاءوا النبى يستأذنوه فى تغيير مجرى الحفر، لكن الرسول تناول معوله وضرب الصخرة مكبرًا ثلاث ضربات تطاير خلالها الشرر فيصيح النبى الله أكبر، وأوضح لهم الرسول أنه رأى فى الشرارة الأولى أنه أعطى مفاتيح سورية، ورأى فى الثانية أنه أعطى مفاتيح فارس، وفى الثالثة أنه أعطى مقاليد اليمن.. ثم شرح لهم كيف أنه شاهد قصور الروم وفارس وصنعاء وبشرهم بأنهم سوف يسيطرون على هذه الممالك كلها ـ فيا لها من ظاهرة عجيبة تستحق الوقوف عندها، ومشهد من المشاهد الرائعة التى تكشف عالم الغيب والمستقبل.. فمن خلال السحب القاتمة والحصار الذى يحيط بالمسلمين من كل جانب ـ يرى مستقبلاً عزيزًا للإسلام ـ فمن غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ يستطيع أن يكشف لرسوله عن الغيب والمستقبل الذى يدخر للمسلمين المجد والسلطان فى مثل هذه اللحظة العسيرة التى يُهَدِّد فيها الأعداء المسلمين والإسلام بالحصار والدمار؟

... لقد رأى العرب فى غزوة الأحزاب من آيات الله ما رأوا، إذ رأوا فى تدبير الحرب من جيش المسلمين ما لم يكن عندهم فيه علم «حفر الخندق». ورأوا من آيات الله الكبرى ما بهر النفوس، وما استرعى الأنظار، لقد شاهدوا السماء تَنْصُر جيش الإسلام، وتهزم جيش الكفر، ورأى أحزاب المشركين من قبائل العرب المجتمعة على الضلال نذر السماء تأتيهم كما أتت عادًا من قبل، إذ أتتهم ريح صرصر عاتية. وأن هذه النذر التى أتتهم من دلائل النبوة وتأييد الله لدعوة الحق الذى أنكروه. وأصبحت قبائل العرب على قناعة بأن أية قوة مهما بلغت من دعم ومساندة لها من جانبهم فإنها لا تستطيع أن تستأصل جماعة المؤمنين فى المدينة، لأن العرب لم يكن بمقدورهم حشد قوة أكبر من تلك التى حشدوها أمام الخندق، وأيقنوا فى قرارة أنفسهم أن الله يساند

المؤمنين ويهيئ لهم أسباب النصر. وفطن المسلمون من جانبهم إلى أن محاولة العدو فى غزوة الأحزاب هى محاولة يائسة لعدو متهالك على الرغم من الشدة والبلاء الذى يحيط بهم، وأيقنوا بأن هذه المعركة لم تكن معركة خسائر ومغانم، لكنها كانت معركة صبر إرادة وقوة تحمل، لم يحدث فيها قتال وتلاحم على مثال ما جرى فى بدر وأحد، واغتبطوا عن رضى بأن هذه هى المحاولة الأخيرة من جانب المشركين التى أسفرت عن تخاذلهم وتشتتهم ـ فكانت من أهم المعارك الفاصلة فى تاريخ الإسلام على الرغم من عدم حدوث قتال. وصدق الرسول الكريم فى قوله عند جلاء الأحزاب[٤١] «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم».

ويشير الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه «حياة محمد»[٤٢] إلى أهمية غزوة الأحزاب، فيقول: «وطدت غزوة الأحزاب، ووطد القضاء على بنى قريظة للمسلمين فى المدينة، فلم يبق للمنافقين فيها صوت قط. وذهبت كلها تتحدث بقوة المسلمين وسلطانهم، وبمقام محمد وقوته ورهبة جانبه. ولكن الرسالة لم تكن للمدينة وحدها بل كانت للعالم بأسره. فما يزال النبى وأصحابه إذًا يمهِّدون لكلمة الله، وأن يدعوا الناس لدينه الحق، وأن يصدّوا عنه كل معتد عليه. وهذا ما فعلوه . . .». **وهكذا خرج المسلمون والإسلام من الحصار.**

الحديبية ومرحلة جديدة فى تاريخ الإسلام

انقضت ست سنوات منذ هجرة النبى ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة، وهم فى جهاد مستمر، بينهم وبين قريش تارة، وبينهم وبين اليهود تارةً أخرى. والإسلام فى أثناء ذلك يزداد انتشارًا وقوة. وفى هذه السنوات الست نزلت الآيات كثيرة متتابعة فى شأن المسجد الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنًا. ولكن قريشًا كانت ترى فى النبى والذين معه مُنْكرين لآلهة هذا البيت من الأصنام القائمة فيه. ولذلك كانت ترى أن حربهم وحرمانهم من الحج إلى الكعبة واجب عليها ـ والمسلمون خلال هذه السنوات يذوقون ألم الحرمان من أداء الواجب الدينى المفروض عليهم، لكن ثقتهم فى نصر الله لرسوله وإياهم، وإعلاء دينهم على الدين كُلِّه كانت إيمانًا لا يتزعزع فى نفوسهم بأن يومًا قريبًا لا بُدَ آت يفتح الله لهم فيه أبواب مكة ليطوفوا بالبيت العتيق.

. . . وإنهم لمجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبى ـ صلوات الله عليه ـ برؤياه الصادقة أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون ـ لكن قريشًا عزمت على منع المسلمين من دخوله مهما كان الثمن. وبعد مفاوضات بين الجانبين تمت كتابة الصلح على أن تكون هدنة بين الجانبين مدتها عشر سنين، وأن يرجع النبى وأصحابه عن مكة هذا العام، على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ولا يكون معهم من السلاح إلا السيوف فى قربها ولا سلاح غيرها. كما تم الاتفاق على أن من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا من رجال محمد فلا يردونه عليه، وأنه من أحب من العرب مخالفة محمد فلا جناح عليه، ومن أحب مخالفة قريش فلا جناح عليه. وما كاد هذا الصلح يوقع حتى حالفت خزاعة النبى وحالفت بنو بكر قريشًا. وأقبل «أبو جندل بن سهيل بن عمرو» الذى فاوض الرسول نيابة عن قريش ـ يريد أن ينضم إلى المسلمين ويسير معهم. لكن رسول الله قال له: «يا أبا جندل اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجًا. إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم». وعاد أبو جندل إلى قريش نفاذًا لعهد النبى ووعده لقريش.

. . ولم يبق للمسلمين إلا أن يرجعوا إلى المدينة فى انتظار أن يعودوا إلى مكة العام المقبل. وقد كان أكثرهم يحتمل هذه الفكرة على مضض، وإنهم لفى طريقهم بين مكة والمدينة إذ نزل الوحى على النبى ﷺ بسورة «الفتح» فتلا النبى على أصحابه قوله تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢**﴾ إلى آخر السورة. ولم يبق ـ إذن ـ ريب فى أن صلح الحديبية فتح مبين. وقد كان كذلك، وأثبتت الأيام التالية لهذا الصلح أنه كان حكمة بالغة من جانب النبى، وكان لها أكبر الأثر فى مستقبل الإسلام ومستقبل العرب أجمعين. فقد كانت هذه أول مرة تعترف فيها قريش بنبى الإسلام ندًا لها، ثم إن إقرارها للمسلمين بحق زيارة البيت وإقامة شعائر الحج اعتراف منها بالإسلام كدين جديد. كما أن الهدنة جعلت المسلمين يطمئنون من ناحية الجنوب ولا يخشون غارة قريش، ومهدت لزيادة انتشار الإسلام. وقد انتشر الإسلام بالفعل بعد هذه الهدنة

انتشاراً كبيراً بلغ أضعاف انتشاره قبل عقد هذا الصلح. وبرهنت الأحداث على أن الإسلام استفاد من صلح الحديبية أعظم الاستفادة ـ وفى هذا يقول الإمام «ابن القيم»[٤٣] فى الحكمة من هدنة الحديبية: «أنها كانت مقدمة بين يدى الفتح الأعظم الذى أعز الله به رسوله وجنده، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابًا له ومفتاحًا ومؤذنًا بين يديه، وهذه عادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الأمور العظام التى يقضيها قدراً أو شرعًا، أن يوطئ لها بين يديها مقدمات وتوطئات تؤذن بها وتدل عليها.. وأن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح، فإن الناس أمن بعضهم بعضًا، واختلط المسلمون بالكفار، وبادءوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان مختفيًا بالإسلام، ودخل فيه فى مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا أسماه الله فتحًا مبينًا».

كما يروى «ابن هشام»[٤٤] فى سيرته عن ابن اسحاق عن الزهرى قوله: «ما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه (أى من صلح الحديبية) إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر، ولذلك أطلق القرآن الكريم على هذا الصلح اسم «الفتح»...». ويستطرد ابن هشام قوله: «والدليل على قول الزهرى أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة فى قول جابر بن عبد الله.. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف...».

ومن الحكم الجليلة لصلح الحديبية أيضًا أن الله ـ تبارك وتعالى ـ إنما أراد أن يجعل فتح مكة لنبيه الكريم فتح سلم ومرحمة.. لا فتح قتال وملحمة فتحًا يدخل فيه الناس فى دين الله أفواجًا، يسبحون الله ويحمدونه على هدايته لهم إلى الإسلام، ويستغفرونه لما قدمت أيديهم قبل هدايتهم؛ لأنه هو التواب الرحيم.

المواجهة مع اليهود.. خصم الإسلام العنيد

جاء اليهود الذين سكنوا جزيرة العرب قبل البعثة المحمدية هاربين من بطش الرومان بعدما تنصَّروا وعرفوا أن اليهود أعداء المسيح والساعون إلى قتله.. ولكن بعد قدوم اليهود[٤٥] لبلاد العرب التى احتضنتهم ـ ماذا قدموا لها؟ هل خاصموا عبادة الأصنام؟

هل قاموا بدعوة العرب إلى عبادة الله الواحد؟ هل خدموا رسالة موسى بشيء؟ والإجابة كلا لم يفعلوا شيئًا من ذلك ـ لقد اشتغلوا بتثمير أموالهم فى التجارة والزراعة، وركنوا إلى أهوائهم وأحلامهم بأنهم شعب الله المختار ـ ولم يُقدِّموا شيئًا لديانة التوحيد ـ أما الإسلام فإنه خلال عشرين عامًا من ظهوره فعل لدين الله ما لم يفعله اليهود خلال مائتى عام، ورفع راية التوحيد على وهاد الجزيرة العربية ونجادها، وأقام لله ملكًا كبيرًا.

. . . والغريب أن اليهود عند ظهور النبى محمد واقتراب رسالته من مواطنهم فى المدينة المنورة كانوا أشد الناس ضيقًا به وعداء له، وأبوْا إلا الخيانة رغم العهود والمواثيق. فعندما جاء النبى إلى المدينة تحالف معه اليهود، لكن ازدهار الإسلام أوغر صدورهم خصوصًا بعد انتصار بدر، فلم يتركوا سبيلاً للافتراء على المسلمين حتى سلكوه، وذهبت بهم العداوة إلى حد الاعتداء على أعراض وأرواح المسلمين. وهكذا نقضوا حلفهم واعتزموا محاربة المسلمين فحاصرهم الرسول وبعد التسليم قبلوا أية عقوبة يتراءى للنبى أن يفرضها عليهم، فطلب النبى منهم الخروج من المدينة هؤلاء هم يهود **«بنو قينقاع»**، ومثلهم أيضًا تم إبعاد يهود **«بنى النضير»** التى تآمرت على حياة الرسول واتصلوا بقريش وغيرها من القبائل لتأليبهم على المسلمين. وعرض الرسول عليهم أن يختاروا بين الخروج من المدينة وبين الرجوع إلى العقل والاتزان وتجديد الحلف مع المسلمين. وقد قبل **«بنو قريظة»** تجديد الحلف عن طيب خاطر مع المسلمين، بينا رفض بنو النضير ذلك الحلف الجديد، فأصبحوا أعداء الإسلام السافرين، وفى نهاية المطاف، غادروا المدينة بعد حصارهم من جانب المسلمين. ثم تأتى غزوة الأحزاب ومعها خيانة **«بنى قريظة»** فى أخطر مرحلة من مراحل المواجهة بين المسلمين والمشركين؛ هذه الخيانة التى أضرت بالمسلمين وضاعفت من كربهم ومحنتهم، فكان من الطبيعى والمنطقى أن ينالوا جزاء خيانتهم بعد ذهاب الأحزاب ـ فضرب النبى الحصار على حصونهم ومعاقلهم، ثم استسلموا على أن يُحكِّم فيهم الرسول «سعد بن معاذ» زعيم الأوس وحليفهم السابق ـ وحكم عليهم سعد بما جاء فى شريعتهم جزاء الخيانة فى ساعة الخطر، حيث رأى أن جريمتهم الجسيمة تستحق العقاب الصارم، فحكم بالموت على رجال قبيلتهم وسبى النساء والأطفال ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم.

. . . هُنا قد يشير البعض إلى أنه حكم صارم، لكنه عين ما اعتاده اليهود وفقًا لما جاء فى كتابهم المقدس. كان القاضى من اختيارهم، وكان الحُكْم مطابقًا تمام المطابقة لشريعتهم. ولو أنهم تركوا الأمر لنبى الرحمة لما نالهم أكثر مما نال قبائلهم السابقة من الإبعاد عن المدينة. فالاحتجاج على هذا الحكم الصارم إنما هو احتجاج على الشريعة الموسوية ـ وربما كان ذلك بمثابة الإنصاف المستتر للإسلام ـ فإن صَحَّ بأن الشريعة الموسوية شريعة صارمة ـ فكأن العالم كان فى حاجة إلى شريعة جديدة كشريعة الإسلام ـ أكثر تسامحًا ورأفة، إذ أن شريعة الإسلام هى شريعة الرحمة والسلام.

. . . فقد جاء فى كتاب اليهود «العهد القديم»(٤٦): «حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك. وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا، فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن، فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرقها تحريقًا ـ [تبيدها وتهلكها إهلاكًا]. . .». وإذا كانت المسيحية امتدادًا لليهودية، فإنها لم تأت بتشريع جديد، بينما جاءت شريعة الإسلام لتؤكد أن الأصل فى العلاقة مع المخالفين والآخرين هو السلم والمودة والبر والرحمة والعدل، أما القتال فإنه طارئ استثنائى، يفرضه عدوان الآخرين على المسلمين سواء بالإكراه والفتنة فى الدين، أو بإخراجهم من الأوطان والديار بالتهجير والاقتلاع أو بالاستعمار والاحتلال ـ فالقرآن الكريم يقرر فى قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٠].

● محاباة اليهود الوثنية على حساب التوحيد

تواصلت مساعى اليهود لجمع كلمة الشرك والوثنية ضد التوحيد الإسلامى، وصل الأمر إلى عرضهم ثمار مزارع خيبر على **«قبيلة غطفان»** المشركة لتتحالف معهم فى القضاء على مدينة الإسلام، بل لقد ذهبوا ـ إبان هذه المساعى ـ إلى الحد الذى شهدوا فيه ـ وهم أهل كتاب ـ أن الشرك والوثنية أصح وأفضل من التوحيد الذى جاء به رسول الإسلام، فعندما سألهم مشركو قريش أدِيننا خير أم دين محمد؟ أجابهم يهود خيبر

قائلين: بل دينكم خير من دينه، فأنتم أولى بالحق. وفى هذا الموقف الشائن نزل قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا** ﴾ [النساء: ٥١] وفى تعليقه على هذا الموقف يقول الدكتور **«إسرائيل ولفنسون»** فى كتابه **«تاريخ اليهود فى بلاد العرب»**(٤٧): «كان من واجب هؤلاء ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم. لأن بنى إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين والذين نُكبُوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتى من الأدوار التاريخية، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم وأن يخذلوا المشركين. هذا فضلاً عن أنهم بالتجائهم إلى عُبَّاد الأصنام، إنما كانوا يحاربون أنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام وبالوقوف منهم موقف الخصومة».

• خيبَر.. والدَرْس الأخير!!!

تم فتح خَيْبَر بعد صلح الحديبية، أى فى السنة السابعة من الهجرة، ويجب التنويه بأنه لما طُردَ يهود بنى النضير من المدينة، نزل الفريق الأكبر منهم لا سيما زعماؤهم فى خَيْبَر، وهى أهم معقل لليهود فى بلاد العرب، تبعد مسافة مائتى ميل من المدينة، وعاش اليهود فيها عيش الحرية والاستقلال، وحَصَّنوها تحصينًا قويًا، لكنهم بذروا بذور الحقد والكراهية للمسلمين، فهم الذين أهاجوا قبائل مكة وغطفان وباقى القبائل العربية فى غزوة الأحزاب، وهم الذين سعوا لإشراك يهود بنى قريظة فيها وتخليهم عن المسلمين وقت الشدة، فلما انتهت الغزوة بهزيمة الأحزاب وانسحابهم، ثبتت أقدام المسلمين فى المدينة بعد العقاب الذى تلقاه يهود بنى قريظة جزاء خيانتهم للمسلمين ـ كما أسلفنا ـ إلا أن عداوة اليهود كانت كامنة فى قلوبهم، تزداد مرارة مع توالى هزائمهم، فاتصلوا سرًا بكبير المنافقين فى المدينة (عبد الله بن أبى) الذى أعطاهم العهود والمواثيق مؤكدًا لهم أن فى استطاعتهم القضاء على المسلمين، خصوصًا بعد أن حالت قريش دون حج النبى بيت الله الحرام وعقد صلح الحديبية بشروط فيها شىء من الإجحاف بالمسلمين. زاد هذا فى اعتقاد يهود خَيْبَر بأن الإسلام قد وَهَن، وعادوا

يُدْفئون صدورهم بآمال جديدة حول إمكانية استئصال الدين الجديد، فقاموا بالاتصال بقبيلة غطفان يطالبونها بالهجوم على المدينة. وعَلِمَ النبيّ بما كانوا يُضْمرون، واستوثق من الأمر بالتحرى الدقيق، ثم سَيَّرَ إلى خَيْبَر جيشًا قوامه ألف وستمائة مقاتل عسكر فى منعطف الطريق عند الرقيع بين خَيْبَر وغطفان، فلم يعد فى إمكان غطفان إرسال جنودها إلى خيبر. وشعر يهود خيبر بجريمتهم وباتوا يترقبون الهجوم عليهم، وبعد هزيمتهم التمسوا من النبى الكريم أن يترك لهم أراضيهم يتولون زراعتها على أن يؤتوا الجزية للمسلمين مقدارها نصف إنتاجها، ورغم ما كان منهم قَبلَ النبى ﷺ ملتمسهم رغم علمه بأنهم لن يحفظوا عهدًا كدأبهم. وعاملهم النبى بالحسنى وبذل كل جهده لإصلاح ذات البين بينه وبينهم، لكن على غير جدوى، وكان النبى ﷺ يتوق لرؤيتهم وقد ارتبطوا مع المسلمين بروابط الأُلْفة والمحبة. وخطا النبى خطوة جديدة لخطب ودهم بزواجه من صفية بنت حيىٍّ بن أخطب سيد يهود، فأعتقها من الأسر وتزوجها مَرْضاةً لأهل خيبر رغم تهاوى الحصون وانهزام الكبْر والغرور.

مؤتة وبداية الصدام مع الروم

مؤتة قرية صغيرة جنوبى الأردن، وفيها قُتل الحارث بن عمير[٤٨] الذى بعثه رسول الله ﷺ بكتاب إلى حاكم بصرى التابع لهرقل قيصر الروم، قتله شرحبيل بن عمرو الغسانى، فشق ذلك على رسول الله ﷺ وندب الناس لحربه ثأرًا للحارث بن عمير، فأسرعوا وتجمع له ثلاثة آلاف ـ وقال لهم: أميركم زيد بن حارثة، فإن قُتل فجعفر بن أبى طالب، فإن قُتل فعبد الله بن رواحة، وأوصاهم ألا يغدروا وألا يغلوا (يخونوا) فى الغنيمة وألا يعترضوا لرجال الصوامع والرهبان وألا يقتلوا امرأة ولا صبيًا ولا كبيرًا فانيًا، وألا يقلعوا شجرًا ولا يهدموا بيتًا. وأمرهم الرسول أن يسيروا حتى مؤتة حيث قتل الحارث بن عمير. ومضوا إلى غايتهم فى جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة.

... وعَلِمَ شرحبيل بن عمرو الغسانى بخبرهم فأخذ يجمع لهم جيشًا من قبائل الشام واستصرخ الرومان ضد هذا الجيش المسلم الموجه لغزو الأراضى التابعة للإمبراطورية المسيحية. وفى أيام قلائل، كان تيودور أخو القيصر على رأس جيش رومانى مكون من مائة ألف مقاتل يساعدهم شرحبيل الغسانى بمائة ألف أخرى من نصارى القبائل العربية الشمالية. وكانوا مجهزين تجهيزًا عسكريًا تامًا. ولم يكن الجيش

المسلم يظن أنه سيلقى مثل هذا الجيش الضخم. وتشاور بعض قادة جيش المسلمين فى أن يكتبوا لرسول الله ليردهم أو ليزيدهم رجالاً ـ وعارضهم عبد الله بن رواحة، وقال: والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة العدد ولا بكثرة السلاح ولا بكثرة الخيول، إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به. وتَشَجَّع الرجال ومَضَوْا إلى مؤْتَة. وفى مؤْتَة رأى جيش المسلمين الأعداء من الروم ونصارى العرب معهم ما لا يكاد يحصى من عدد الحرب والسلاح والخيل.

. . . وأهم ما يثير الدهشة فى هذه الغزوة، تلك النسبة الكبيرة من الفرق بين عدد المسلمين وعدد مقاتليهم الذين بلغ عددهم ما يقرب من مائتى ألف مقاتل ـ على حين لم يتجاوز عدد المسلمين ثلاثة آلاف. أى أنهم كانوا أكثر من ستين ضعفًا. ويروى ابن هشام[٤٩] فى سيرته عن ابن إسحاق قال: ثم التقى الناس واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط (هلك) فى رماح القوم. ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قتل. فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر فرسه فى الإسلام. فلما قُتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل. ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم ثم انحاز وانحيز عنهم، حتى انصرف بالناس.

يقول الإمام ابن القيم[٥٠]: «ذكر ابن سعد أن الهزيمة كانت على المسلمين» والذى فى «صحيح البخارى» أن الهزيمة كانت على الروم، والصحيح ما ذكره ابن إسحاق أن كل فئة انحازت عن الأخرى.

وإذا كان هناك خلاف على ما نرى بخصوص هذه المعركة بين المُحدثين والمؤرخين حول ما إذا كانت انتصاراً أم لا، إلا أنها كان لها من الأثر النفسى العميق؛ فصمود هذا الجيش الصغير أمام هذه الجحافل وتمكنه من الانسحاب والرجوع دون خسائر كبيرة فيما عدا استشهاد قواده الثلاثة وعدد آخر من الجنود، إلا أنها أكدت لسائر قبائل العرب أن المسلمين مؤيدون بنصر الله فأسلمت قبائل عربية عديدة وكانت هذه المعركة نقطة البداية فى المواجهة مع إمبراطورية الروم وتمهيداً لفتوحات المسلمين.

عاد جيش المسلمين بعد موقعة مؤتة ولواؤهم لخالد بن الوليد. عادوا لا منتصرين ولا منكسرين، ولكن راضين من الغنيمة بالعودة سالمين. وقد ترك انسحابهم بعد استشهاد زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة أثرًا مختلفًا أشد الاختلاف عند الروم وعند المسلمين المقيمين بالمدينة وعند قريش بمكة ـ أما الروم ففرحوا بانسحاب المسلمين وحمدوا ربهم أن لم يطل القتال بهم، مع أن جيش الروم كان مائة ألف على قول ومائتى ألف على قول آخر. أما القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت إلى فعال المسلمين بإعجاب أشد الإعجاب، وازداد الإسلام انتشارًا بين قبائل نجد المتاخمة للعراق والشام حيث كان سلطان الروم فى ذروته. لذلك دخل الإسلام ألوف من قبائل سليم وأشجع وغطفان وعبس وذبيان وفزارة ـ فكانت غزوة مؤتة بذلك سببًا فى استتباب الأمر للمسلمين فى شمال المدينة إلى حدود الشام، وفى ازدياد الإسلام عزة ومنعة، لكن أثرها فى نفوس المسلمين المقيمين بالمدينة كان غير هذا الأثر، فهم ما لبثوا حين رأوا خالدًا والجيش معه عائدين من تخوم الشام لم ينتصروا على جيش هرقل أن صاحوا فى وجوههم «يا فُرَّار.. فررتم فى سبيل الله».. أمَّا عن أثر مؤتة فى نفوس قريش فقد رأت أنها هزيمة قضت على المسلمين وعلى سلطانهم، فلتعد الأمور كما كانت قبل الحديبية. ولْتَعُدْ قريش حربًا على المسلمين ومن فى عهدهم من غير أن تخشى قصاصًا من النبى ﷺ.

نقض قريش عهد الحديبية

كان صلح الحديبية يقضى بأن من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه. وكانت خزاعة قد دخلت فى عهد النبى ﷺ ودخلت بنو بكر فى عهد قريش. وكانت بين خزاعة وبنى بكر ثأرات قديمة سكنت بعد صلح الحديبية وانحياز كل من القبيلتين إلى فريق من المتصالحين. فلما كانت معركة مؤتة وخيل إلى قريش ضعف المسلمين الأمر الذى شجع «بنى بكر» على الاعتداء على «خزاعة» بتحريض من جماعة من قريش. وسارع عمرو بن سالم الخزاعى متوجهًا إلى المدينة حتى وقف بين يدى الرسول وجعل يقص

عليه ما حدث ويستنصره. وأجابه رسول الله ﷺ «نُصرْتَ يا عمرو بن سالم». أما حكماء قريش وذوو الرأى فيها فما لبثوا أن قدروا الموقف من جراء نقض العهد بينما سلطان محمد يزداد بأسًا وقوة فى شبه جزيرة العرب، فإذا ما فكر فى أن ينتقم لخزاعة من أهل مكة فسوف تواجه المدينة المقدسة أشد الخطر ـ فأوفدوا أبا سفيان إلى المدينة ليُثَبِّت الصلح ويزيد فى المدة. لكن سفارة أبى سفيان أخفقت، وعاد إلى مكة تتلاعب به الهواجس والظنون.

استعداد المسلمين لفتح مكة

رأى النبى ﷺ ألا يترك الفرصة لقريش ليتجهزوا للقائه. ولئن كان واثقًا من قوته ومن نصر الله إياه. وكان يرجو أن يَبْغَت القوم فى غرة منهم، فلا يجدوا له دفعًا، فيسلموا من غير أن تراق الدماء. لذلك أمر الناس بالتجهيز فلما تجهزوا أعلمهم أنه سائر إلى مكة، وسار النبى ﷺ فى عشرة آلاف حتى إذا انتهى إلى ذى طوى ورأى من هناك مكة لا تقاوم استوقف كتائبه ووقف على راحلته، وانحنى لله شاكرًا، أن فتح عليه مهبط الوحى ومقر البيت الحرام ليدخله والمسلمون آمنين مطمئنين. وكان من التدبير الحكيم[٥١] لرسول الله ﷺ ما أمر به أصحابه من أن يتفرقوا فى مداخل مكة، فلا يدخلوها عن طريق ومدخل واحد، وذلك بغية تفويت فرصة القتال على أهل مكة إن أرادوا ذلك، إذ يضطرون إلى تشتيت جماعاتهم وتبديد قواهم فى أنحاء مكة وأطرافها فتضعف لديهم أسباب المقاومة ومغرياتها ـ وفعل رسول الله ذلك حقنًا للدماء ما أمكن وحفظًا لمعنى السلامة والأمن فى البلد الحرام، ومن أجل ذلك أقر المسلمين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم معلنًا أن من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن. وقال رسول الله ﷺ فى خطبة يوم فتح مكة ـ وقد التف الناس حوله: «يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

... وبهذا الفتح المبين أصبح للمسلمين اليد العليا على سائر أنحاء جزيرة العرب على الصعيدين السياسى والدينى ـ وَمَثَّلَ فتح مكة مرحلة هامة فى تاريخ الإسلام تم خلالها فى هذا الفتح الأعظم القضاء على كيان الوثنية قضاءً مُبْرمًا، وأصبح الطريق مفتوحًا أمام الناس كافة للدخول فى دين الله أفواجًا.

اختلاف العلماء حول طبيعة فتح مكة

يُشير الدكتور «شوقى ضيف»[٥٢] إلى اختلاف علماء السلف فى فتح مكة، هل فتحت مؤَمَّنة، والأمان مثل الصلح أو فتحت عنوة وقهراً. وممن قال بالرأى الأول الإمامان: الشافعى وابن حنبل، وقال بالرأى الثانى الأئمة: الأوزاعى ومالك وأبو حنيفة، فقد قالوا إنها فتحت عنوة؛ لأنها أخذت غلبة بالخيل والركاب. ويحتج أصحاب **الرأى الأول** بأنه لم يجر منها قسم غنيمة ولا سبى أحد من أهلها، وظلوا مالكين لدورهم ومن حقهم كراؤها وبيعها وشراؤها لأن من يُؤمّنْ يَحْرُم ماله ودمه. ورد أصحاب الرأى الثانى بأن مكة خُصَّت بذلك لما عظم الله من حرمتها، وأشار الرسول إلى ذلك فى خطبته غداة فتحها قائلاً: «مكة حرام لم تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد بعدى، وإنما أحلت لى ساعة من نهار، ثم هى حرام إلى يوم القيامة». واتفق العلماء على أنه لا يجوز القتال فى مكة وما يتبعها من الحرم.

غرور الكثرة فى حُنَيْن وكسر شوكة الطائف

أقام المسلمون فى مكة فرحين بنصر الله والفتح المبين، ونفوسهم مطمئنة إلى أن الأمر قد استقر للإسلام، وأن الجانب الأكبر من الجهاد حالفه الفوز والنجاح. وإنهم لكذلك بعد مرور خمسة عشر يومًا من إقامتهم ترامت إليهم أنباء استعداد قبيلة هوازن التى كانت تقيم على مقربة من مكة إلى جنوبها الشرقى فى جبل هناك لشن هجوم مفاجئ على المسلمين خشية منها أن تدور عليها الدائرة وأن يقتحم المسلمون منازلها. ففكرت بالمبادرة لاتقاء هذه الكارثة الوشيكة الوقوع. وأوفد النبى ﷺ من يتبين حقيقة الأمر، وعاد الرسول يؤيد الخبر، فأمر النبى بتجهيز جيش قوى لسحق هوازن، وسار المسلمون فى جيش قوامه اثنا عشر ألفًا من المقاتلين، منهم عشرة آلاف هم الذين غزوا مكة وفتحوها، وألفان ممن أسلم من قريش وبينهم أبو سفيان بن حرب. سار المسلمون وعلى رأسهم النبى فى هذا الجيش الذى لم تعرف بلاد العرب مثيلاً له من قبل، حتى لقد تحدث بعضهم إلى بعض وهم يقولون: لن نُغْلَب اليوم لكثرتنا، وبلغوا حُنَيْنًا قبل المساء، فنزلوا على أبواب واديها وأقاموا بها حتى بكرة الفجر. كانت هوازن حاذقة فى الرماية بالسهام والنبال، يضاف إلى هذا أنها احتلت المواقع الممتازة كلها

ونشرت رُمَاتها فوق التلال والمرتفعات، واضطر المسلمون إلى النزول بالمواقع غير الملائمة، فكانت السهام تنزل عليهم من كل صوب وحدب أشبه بالمطر، بينما تقدم جيش هوازن لمهاجمة قلب جيش المسلمين، والتقى الجمعان وجهًا لوجه، وكانت طليعة جيش المسلمين تحت إمرة خالد بن الوليد، وهى مكونة من المكيين حديثى العهد بالإسلام. فكانوا أول من خاض غمار المعركة، ولكنهم لم يتحملوا عنف القتال الشديد، فتراجعوا وأدى تراجعهم إلى اضطراب النظام بين صفوف المسلمين فارتدوا جميعًا فى غير نظام.

يروى ابن هشام فى سيرته عن «ابن إسحاق»[٥٣] قوله: «فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ليلقاهم ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعًا له وسلاحًا، فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك. فقال: يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدًا. فقال صفوان: أغصبًا يا محمد؟ قال: بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك. قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح. فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ففعل». بقى النبى ومعه عمه العباس وفئة قليلة وحدهم فى العراء عرضة لسهام المهاجمين المحتشدين. رأى النبى جيش المسلمين يرتد فثبت فى مركزه المحفوف بالخطر فى رباطة جأش تدعو إلى الإعجاب الشديد. كان العدو يتقدم فى سرعة خاطفة، وكاد يكون بمفرده، ولكن ذلك لم يؤثر فيه أى تأثير. ألم يكن فى أمان، ترعاه عناية الله العلى القدير؟ نادى النبى بأعلى صوته: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب» وصرخ العباس بصوته الجهورى فى جموع المسلمين وعادت جموعهم تلتئم من جديد. وشدوا على العدو بعنف وجرأة فلم يستطع العدو الثبات فى وجههم وأخذ فريق منه فى الفرار، وفريق آخر يقاوم، ثم ولوا جميعًا الأدبار. وكانت هوازن قد خرجت عن بكرة أبيها وبكل أموالها مع الجيش تشجيعًا لرجاله، لكن بعد فرارهم وهزيمتهم تركوا وراءهم كل شىء النساء والأطفال والأموال، وتم حفظ الغنائم فى مكان أمين كما أمر الرسول. وواصل جيش المسلمين السير للحاق بالعدو المهزوم الذين أحكموا حصونهم خلف أسوار الطائف وقاموا بحصارهم، ثم أمر النبى برفع الحصار إذ لم يكن للمسلمين من هدف سوى إبعاد الخطر.

وتُعْتَبر «غزوة حنين»[٥٤] **درسًا بليغًا فى العقيدة الإسلامية وقانون الأسباب والمسببات من نوع ذلك الدرس الذى أوحت به غزوة بَدْر، بل متممًا له. فإذا كانت غزوة بَدْر قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئًا بجوار كثرة عدوهم إذ كانوا صابرين ومتّقين، فإن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضًا لا تفيدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقين**. وكما نزلت آيات من كتاب الله ـ تعالى ـ فى تقرير عبرة بدر، فقد نزلت آيات منه أيضًا فى تقرير العبرة التى ينبغى أن تؤخذ من حنين. كان المسلمون فى بدر أقل عددًا منهم فى أى موقعة أخرى، ومع ذلك فلم تضرهم القلة شيئًا بسبب صدق إسلامهم ونضج إيمانهم وشدة ولائهم لله ورسوله. وكان المسلمون فى حُنَيْن أكثر عددًا منهم فى أى موقعة أخرى خاضوها من قبل، ومع ذلك فلم تنفعهم الكثرة شيئًا بسبب تلك الجماهير التى لم يتمكن الإيمان بعد فى نفوسها، ولم يتغلغل معنى الإسلام بعد فى أعماق أفئدتها. ولكن ما هو إلا أن سمع الأنصار والمهاجرون صيحات رسول الله ﷺ ونداءه لهم حتى كروا عائدين، يلتفون حول رسول الله ﷺ ويخوضون معه معركة حامية الوطيس، ولم يكن هؤلاء يزيدون على المائتين. ولكن بهؤلاء المائتين عاد النصر إلى المسلمين، ونزلت السكينة على قلوبهم، وهزم الله عدوهم شر هزيمة، بعد أن كانوا اثنى عشر ألفًا، فيهم كثير من الخلطاء الذين لم يغنوا عن أنفسهم شيئًا.

«خاتمة الغزوات» .. تبوك والحرب على النفاق

يقول «ابن عبد البر» فى كتابه «الدرر فى اختصار المغازى والسير»[٥٥]: «أن رسول الله خرج فى رجب من سنة تسع من الهجرة بالمسلمين إلى غزوة الروم، وهى آخر غزوة غزاها ﷺ بنفسه، وكان خروجه إلى غزوته تلك فى حر شديد، وحين طاب الثمر، وفى عام جدب. وكان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج غازيًا إلا ورى بغيرها إلا غزوة تبوك، فإنه بينها للناس لبعد المسافة ونفقة المال والشقة وقوة العدو المقصود إليه...». فعلى الرغم من عطف المسلمين على أهل الكتاب من نصارى ويهود، كان لظهور الإسلام وانتشاره فى جزيرة العرب أثر عكسى على الإمبراطورية الرومانية

المسيحية، فقد أثار قلقها وجعلها تنظر بعين الغيرة والحسد إلى هذا النمو السريع والنجاح الباهر. وما كانت لتستطيع السكوت على اطراد انتشار الإسلام، وقد وقعت بينهما معركة فى مؤتة ـ لكنها غير مكتملة فلم تسفر عن غالب أو مغلوب لانحياز الفريقين. ولما بلغ الدولة الرومانية أن جزيرة العرب كلها قد دانت للإسلام ثارت الغيرة الدينية، وأصاب الروم حزن ثقيل. فقد كانوا يمنون النفس بتنصير شبه جزيرة العرب كلها، فعقدوا العزم على محاربة المسلمين لوقف الإسلام الزاحف فى كل مكان. وعلم الرسول الكريم بنبأ من بلاد الروم أنها تهيئ جيوشًا لغزو حدود العرب. وأن قبائل العرب المسيحية قد انضمت إلى الرومان، فبادر النبى ﷺ إلى تجهيز حملة ليسيرها إلى حدود سورية تلاشيًا للهجوم المفاجئ وتحصينًا للحدود. وليقظة النبى ﷺ فإنه لم يُهْمل أمر قيصر الروم بالقضاء على الإسلام، بل أخذ للأمر عدته ـ ولما كانت أفضل وسائل الدفاع هى منع جيوش العدو من دخول أراضى البلاد، قاد النبى الحملة إلى الحدود، واستنفر جميع القبائل للذود عن ديارها. وما كان الأمر بالطبع هينًا ميسورًا، فالطريق إلى الحدود طويلة منهكة، والجو حار شديد الحرارة، والحبوب قد نضجت وحان حصادها، وفوق ذلك كله اشتد الخوف من ملاقاة قوات قيصر المدربة المنظمة، فدب الذعر فى قلوب الكثيرين. وخرج الرسول بجيشه يدق أبواب ديار العدو، لكنه وجده لا يبغى حربًا ولا نزالاً، ولا يميل حتى إلى الدفاع عن نفسه. فلو أنه شَنَّ هجومًا ضعيفًا على سورية لضمن ملكًا واسع الثراء، لكنه ما كان يطمع فى سيطرة ولا فى احتلال ولا فى دخول الناس فى الإسلام وهم كارهون. وعلى الرغم من تكاليف الحملة الباهظة، قفل النبى راجعًا بعد اطمئنانه على الحدود، ورجع دون الاعتداء على أحد. وكتب معاهدات مع بعض دويلات الشمال النصرانية، وعاد بعد أن أَمَّنَ بهذه المعاهدات الحدود الشمالية لجزيرة العرب. وشاءت حكمة الله ـ جل وعلا ـ أن يقتصر جهاد المسلمين فى هذه الغزوة على الجهد العظيم الذى بذلوه، والمشقات الجسيمة التى تحملوها، إذ قطعوا تلك المسافات المضنية بين المدينة وتبوك ذهابًا وإيابًا، وكانت رحلة عجيبة فى مشقتها ومشاهد العسر فيها ـ وقد بذل «جيش العُسْرة» فى هذه الغزوة المضنية المال والجهد مبرهنًا بذلك على صدق الإيمان بالله ومحبته ـ فحق له النصر والتأييد، وكفى الله المؤمنين القتال.

. . . وبغزوة تَبوك تمت كلمة الله فى شبه جزيرة العرب كلها، وأمنَ الرسول والمسلمون كل عادية عليها، وأقبل سائر أهلها وفودًا على النبى ﷺ يقدمون الطاعة ويعلنون الإسلام معه. كما كانت هذه الغزوة حربًا على النفاق لتطهير صفوف المسلمين خشية استفحال خطرهم بعد الزيادة الكبيرة فى عدد المسلمين، وأن كل تهاون مع المنافقين يؤدى إلى التفرقة والفتنة وتشتيت جهود جماعة المؤمنين، وتمت كلمة الله بالحق، فكانت تبوك خاتمة غزوات الرسول الأمين.

* * *

obeikan

بيان عدد شهداء المسلمين وقتلى اليهود والمشركين على مدى ٨ سنوات (٢هـ ـ ٩هـ)

من بعوث وغزوات الرسول الكريم

رقم	الغـــزوة	عدد قتلى المشركين	عدد شهداء المسلمين	تاريخ الغزوة	ملاحظـــات
١	بعث عبدالله بن جحش	١	-	سنة ٢ هـ	
٢	غزوة بدر	٧٠	١٤	سنة ٢ هـ	
٣	غزوة السويق	-	٢	سنة ٢ هـ	
٤	بعث كعب بن الأشرف	١	-	سنة ٣ هـ	
٥	غزوة أحد	٢٢	٧٠	سنة ٣ هـ	
٦	غزوة حمراء الأسد	١	-	سنة ٣ هـ	
٧	بعث الرجيع	-	٧	سنة ٣ هـ	
٨	بعث بئر معونة	-	٢٧	سنة ٣ هـ	
٩	غزوة الخندق	٣	٦	سنة ٥ هـ	
١٠	غزوة بنى قريظة(*)	٦٠٠	-	سنة ٥ هـ	هؤلاء قُتلوا بالتحكيم جزاء الخيانة، فلا يحسب عددهم فى ضحايا القتال..
١١	بعث عبدالله بن عتيك	١	-	سنة ٥ هـ	
١٢	غزوة ذى قرد	١	٢	سنة ٦ هـ	
١٣	غزوة بنى المصطلق	-	١	سنة ٦ هـ	
١٤	غزوة خيبر	٢	٢٠	سنة ٧ هـ	
١٥	غزوة وادى القرى	-	١	سنة ٧ هـ	
١٦	غزوة مؤتة	-	١١	سنة ٨ هـ	
١٧	فتح مكة	١٧	٣	سنة ٨ هـ	
١٨	غزوة حنين	٨٤	٤	سنة ٨ هـ	
١٩	غزوة الطائف	-	١٣	سنة ٨ هـ	
٢٠	غزوة تبوك	-	-	سنة ٩ هـ	
	المجمـــوع	٢٠٣	١٨٣		المجموع الكلى من الجانبين: ٣٨٦

(*) قتلى اليهود من بنى قريظة (الباحث).

المصدر: كتاب «الإسلام والآخر» للدكتور محمد عمارة (ص: ٦٥) ـ مكتبة الشروق الدولية.

المبحث الثانى: مواقف التسامُح... ومشاهد الرحمة

كلما شاء الله ـ تعالى ـ أن يُكَلِّفَ قومًا من المؤمنين هداية قوم مشركين، قضى بأن تظهر فئة تعارضهم بكل ما أوتيت من قوة، وتُوقع بهم ألوان الاضطهاد والعذاب. وإن ما يلقونه من العذاب إن هو إلا البرهان على صدق إيمانهم. فهم يتقبلون الإيذاء فى سبيل الله ويحتملون العذاب مرضاةً له، لكنهم لا يتحولون لحظة واحدة عن عقيدتهم، بل يعيشون لها، ومن أجلها يموتون. ولأن الله القدير اقتضت حكمته أن يشهد الخلق جميعًا على أنه لا راد لمشيئته وأنها تقهر الصعاب مهما بلغت، وتُذَلِّل كل العقبات مهما كانت، وعلى ذلك وتمشيًا مع إرادة الله، كان من المقدر أن يقع النبى ﷺ وأصحابه تحت اضطهاد أهل مكة واعتدائهم ـ لكن الاضطهاد مهما بلغ لم يكن مستطيعًا نزع الإسلام من قلوب المؤمنين، ولا كانت المغريات من ملك وثروة مهما بلغ شأنها قادرة عن تحويل الرسول الكريم عن غايته، وقد عجبت قريش نفسها لثبات النبى والذين آمنوا معه، ولقدرتهم على احتمال البلاء وصبرهم على الأذى الذى زادهم تمسكًا بعقيدتهم، فازداد حنقها وإيذاؤها، فما زاد ذلك المؤمنين إلا استمساكًا بدينهم وضاع أمل قريش فى القضاء على الدعوة. **فقد باء الإغراء بنفس ما باء به الإيذاء**. كان الاضطهاد ثقيل الوطأة، وكان الإغراء عظيمًا حقّا. ولولا أن ثَبّتَ الله قلب نبيه على الحق لخذله الإيذاء الذى تعرض له، ولبهره الإغراء الذى عرض عليه، ولكنه ﷺ ظل ثابتًا إزاء المحاولات التى تُبْذل فى سبيل تغيير عقيدته ونبذ رسالته. وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٤] فالسلطة الدنيوية ومتاعها لم تكن غايته؛ لأن هدفه كان إعلاء كلمة الله والارتقاء بالإنسانية من وهدتها، لذلك كان على النبى ﷺ أن يُوَطِّن نفسه على مقابلة صعاب أشد قسوة من الإيذاء والاضطهاد فى سبيل نشر رسالته، فكانت الهجرة وكان القتال.

يقول الدكتور «شوقى ضيف» فى كتابه «محمد خاتم المرسلين»[٥٦]: «لقد شبت معركة قاسية من إيذاء المشركين للرسول وأتباعه المؤمنين، ولما اشتد أذاهم أمر الرسول أتباعه بالهجرة إلى أرض الحبشة فى السنة الخامسة من مبعثه ﷺ وفيها أمنوا على دينهم عند ملك الحبشة المسيحى، وأقاموا بخير دار. لكن الرسول لم يهاجر معهم فقد بقى بمكة يُبَلِّغ رسالته متلقيًا أذى قريش دون جزع، وفى ذلك تتضح رحمته بأصحابه وتفانيه فى إبلاغ عقيدة الإسلام، لهذا فإنه يعد ﷺ النبى الوحيد الذى تمكن من نشر الرسالة التى كلفه بها الله فى حياته وأتمها على خير وجه».

تهذيب فكرة الحرب فى الإسلام

إذا كان الإسلام هو دين الفطرة التى فُطرَ النَّاسُ جميعًا عليها أفرادًا وجماعات، وليس دين وهم أو خيال، ولا هو دين يقف عند دعوة الفرد وحده إلى الكمال، بل دين حق وحرية ونظام. وما دامت الحرب فى فطرة الناس، فإن تهذيب فكرتها فى النفوس وحصرها فى أدق الحدود الإنسانية هو غاية ما تحتمله فطرة البشر وما يحقق للإنسانية اتصال تطورها فى سبيل الخير والسلام. وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون إلا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأى، وأن تُرْعَى فيها الحرمات الإنسانية تمام الرعاية، وهذا ما قرره الإسلام ودعا إليه الرسول الكريم. فقد اقترن بولاية الحرب «آداب» جعلتها تتسم منذ بدايتها بطابع الدين والأخلاق الكريمة؛ إذ دأب الرسول الكريم على تزويد قادة السرايا والبعوث وأصحابه من المقاتلين بالتوجيه والإرشاد، وأكد الرسول بتلك الآداب مفهوم الحرب فى الإسلام. وهو أن الحرب للدفاع المشروع لرد العدوان وتأمين الدعوة، ونزلت الآيات القرآنية تدعيمًا لهذا المفهوم السامى للجهاد فى الإسلام. وكان أهم مبدأ من آداب «الجهاد الحربى» فى الإسلام هو الابتعاد عن اتخاذ القتال سبيلاً لفرض الدين الإسلامى على الناس وحملهم على اعتناقه قسرًا، فقال تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ وأصبح هذا القول الكريم شعار آداب الجهاد فى الإسلام، ودستورًا التزم به المسلمون جميعًا فى سبيل نشر هذا الدين الحنيف ورسالته الإنسانية الرحيمة. فمنذ توقيع «**بيعة العقبة الثانية**» قبل هجرة الرسول مباشرةً إلى يثرب، ودخول الدعوة الإسلامية منحى جديدًا، وانتقال مركزها إلى مركز آخر «المدينة المنورة» تَحدَّد مفهوم «**الجهاد**» فى الإسلام بمعناه الأشمل بالعمل على بناء

مجتمع جديد على أسس القيم والمبادئ الإسلامية. فالجهاد فى الإسلام لا يستهدف الغزو أو الفتح للاستعلاء أو الانتقام، وإنما الجهاد فى الإسلام ـ كما أسلفنا فى الفصل السابق ـ هو دعوة لنظرة جديدة فى الحياة تؤدى إلى بناء مجتمع تتلاشى فيه مفاهيم النظم القبلية البالية من عمى العصبية وتكتلات البغى والعدوان بشتى أشكالها، ويحل مكان كل هذا نظم سامية تكفل لأتباعها الطمأنينة والعدالة والمساواة؛ لأنها تقوم على تعاليم جاءت من عند الله خالق الكون والحياة. لهذا كانت حروب الإسلام تمثل فى ذاتها طريقًا لتأليف القلوب وبعث المحبة من وراء الجيوش. فعندما تسامع العرب بحرب النبى ﷺ وانبعثت بعوثه وسراياه فى الجزيرة العربية، وذهبت جيوشه إليها ومعها عداوة أهل الباطل ومساعدة الشعوب، كان ذلك فى ذاته تأليفًا للقلوب المؤمنة التى من وراء المحاربين من أنصار الأمراء والرؤساء. يقول الشيخ «محمد أبو زهرة» فى كتابه «الوحدة الإسلامية»[٥٧]: «ما كان النبى ﷺ ليخاطب إلا الشعوب، ويزيل عنهم رق الأمراء، وذل المتحكمين فيهم، ولذلك كان من وراء هذه الحروب أو التسامع بها، والدعوة إلى الإسلام أن وفدت الوفود إلى النبى ﷺ وكان مقدمها لتآلف القلوب وإزالة العداوة والبغضاء...». ويوضح الشيخ «صفى الرحمن المباركفورى» فى كتابه «الرحيق المختوم»[٥٨] أن النبى ﷺ أحدث تحولاً فى أهداف وطبيعة الحروب التى كانت تشتعل قبل الإسلام ـ: «فبينما كانت الحرب فى الجاهلية تقوم على السلب والنهب والقتل والإغارة والظلم والبغى والعدوان والأخذ بالثأر وتخريب العمران وهتك الأعراض والعبث والفساد.. صارت هذه الحرب فى الإسلام ـ جهادًا ـ لتحقيق أهداف نبيلة وأغراض سامية وغايات محمودة، يعتز بها المجتمع الإنسانى على مر الزمان.. فقد أصبحت الحرب جهادًا لتخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان إلى نظام العدالة والإنصاف وبسط الرفق والسلام والرحمة وتطهير الأرض من الغدر والخيانة والعدوان.. وشرع الرسول الكريم لهذه الحروب «قواعد شريفة» ألزم قواده وجنوده بالتقيد بها، ولم يسمح بالخروج عنها بحال من الأحوال...».

غزوات الرسول وإرساء تقاليد الحرب والجهاد

• لفتة حضارية من غزوة بَدْر

كان الانتصار فى بَدْر استهلالاً عظيمًا لرسوخ الإسلام فى الأرض، ومن أهم

المشاهد التى تضمنتها «مشهد الأسرى» فعندما تشاور النبى مع أصحابه بشأنهم، ارتاحت نفوسهم إلى افتدائهم بالمال. وكانت الحكمة من ذلك الرأى هو الجمع بين الرحمة والرفق بالأسرى، وشفقة الرسول على أصحابه لا سيما المهاجرين منهم الذين كانت علامات الفقر والحاجة بادية عليهم منذ خروجهم إلى بدر، الأمر الذى جعل الرسول يدعو لهم بالخير، لكن الحكمة الإلهية لم ترد للمسلمين أن يجعلوا النظرة إلى المال ميزانًا للحكم فى قضاياهم الكبرى. فأنزل الله ـ عز وجل ـ قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٦٧]. ووزع الرسول الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيرًا» قال ابن عباس: فكانو يقدمونهم على أنفسهم فى الغداء، وهى لفتة عظيمة فى معاملة أسرى الحرب لم يسبق الرسول إليها أحد فى حروبه، إذ كانت الأسرى تعامل معاملة الرقيق. أما **«اللفتة الحضارية»** من جانب الرسول فهى عرض النبى الكريم على الأسرى أن كلاً منهم يستطيع أن يفدى نفسه ويسترد حريته إذا علم عشرة من صبية المدينة الكتابة، وتعلمها زيد بن ثابت فى طائفة من غلمان الأنصار، مما يدل بوضوح على أن الرسول الكريم كان يريد نقل غلمان المدينة من عالم الأمية والبداوة إلى عالم الكتابة والمعرفة. ولم لا، فالإسلام هو دين العلم ودين الحضارة.

• إستراتيجية مواجهة تداعيات غزوة أحُد

بعد عودة الرسول ﷺ إلى المدينة مع من نجا من أصحابه فى أحُد، بادر الرسول فى صبيحة اليوم التالى للمعركة إلى عمل يُعَد من أروع أعماله السياسية والحربية. فقد رأى أن يخرج فى أثر قريش لملاحقتها كى تسترد فى نفوسها هيبتها من أصحاب موقعة بدر، ويسترد المسلمون ثقتهم بأنفسهم. يقول المستشرق الإنجليزى (ر. ف. بودلى) فى كتابه «الرسول.. حياة محمد»[٥٩] فى إطار تعليقه على هذا الموقف: «... أقدم الرسول على عمل إستراتيجى من الطراز الأول، وعمل نفسانى هائل، وكان فوق كل ما يفكر فيه أى قائد لإحياء الروح المعنوية فى رجال قد تحطموا. فقد جمع الرجال الذين حاربوا فى أحُد وانطلق بهم يقتفى أثر عدوه، ولحق المسلمون بالمكيين لما أرخى ليل اليوم الثانى سدوله، فلما لف الظلام كل شىء عَسْكَر بمن معه وأمرهم أن يوقدوا

مئات النيران على طول الربوة المشرفة على معسكر الأعداء، فكان تأثيرها كما كان يأمل، فقد اعتقد أبو سفيان زعيم قريش أن محمدًا جاءه بمدد جديد من المدينة، وأنه أقبل ليثأر لما حدث فى أحُد، فجمع خيامه وانطلق بعسكره إلى الجنوب، ولم يشعر بالأمن حتى بلغ مكة. وما أن اقتنع الرسول أن خدعته الحربية قد أفلحت، حتى قفل راجعًا إلى المدينة، لينبئ رجاله أن قريشًا ما كانت فى الحقيقة أشجع مما كانت فى بدر.. وكان هذا العمل من أعظم الأعمال التى قام بها محمد فى حياته، فإنه ليدل على نظر ثاقب عجيب فى معرفة البشر ومعاملتهم...».

• مشهد المساواة فى الخندق

يوضح مشهد عمل الصحابة مع رسول الله ﷺ فى حفر الخندق، عبرة كبرى بالغة، تؤكد حقيقة المساواة التى يُرْسيها المجتمع الإسلامى بين جميع أفراده المسلمين ـ فليست العدالة و المساواة فى الاعتبار الإسلامى مجرد شعارات، وإنما تُمَثِّل الأساس الواقعى الذى تنبثق منه القيم والمبادئ الإسلامية عامة ظاهرًا وباطنًا. فلم يندب النبى ﷺ المسلمين إلى حفر الخندق، ثم ذهب ليراقبهم من مكانه المريح، لكنه صلوات الله عليه انخرط فى العمل معهم كأى واحد من أصحابه، حتى أنه لبس ثوبًا من الأتربة والغبار على جسمه فما تُفرقه عن أى عامل آخر من صحبه وإخوانه ـ يتعبون ويجوعون فيكون أولهم تعبًا وجوعًا. تلك هى حقيقة الشريعة الإسلامية وما أقامته من مساواة بين أبناء المجتمع الإسلامى فى الحقوق والواجبات.

• الحكمة النبوية فى الحديبية

لقد ظهرت حكمة الرسول الكريم فى صُلْح الحديبية؛ لأنه كان قادرًا على أن يدخل مكة ويطوف ويسعى ويُنفِّذ إحرامه، فمعه جيش يزيل كل عقبة تقف فى طريقه، ولكنه آثر السلم والعافية وحقن الدماء بسماحة النبوة لتأليف القلوب ـ فالسماحة تجذب النفوس الحائرة إلى الإيمان، بينما السيف يقطع الرقاب، وما فائدة الرقاب بعد قطعها، إذا كانت السماحة تؤدى بالنفوس إلى الإيمان. كان ظاهر صلح الحديبية أنه إذعان لإجحاف أهل مكة وتشددهم، ولكنه كان فى حقيقة الأمر فتحًا، وما كان فتحًا إلا بتقدير الله ـ جل فى علاه ـ وسماحة رسول الله، يقول ربنا ـ جل وعلا ـ فى هذا

الصلح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢].

• السماحة والعفو فى مكة

لم يعرف تاريخ الإنسانية أن قائدًا منتصرًا عامل المغلوبين بمثل ما عامل به النبى الكريم قريشًا ومن حالفهم. لقد فُتحَت مكة واستولى المسلمون عليها، ولكن هناك فتحًا آخر أعظم وأجل من أن تصل إليه أسلحة المسلمين، هو ذلك النصر المبين الذى تم عقب العفو العام عن المكيين. لقد أثَّرَت سماحة النبى ﷺ فى نفوس أهل مكة، وداعبت أوتار القلوب، فلانت أفئدة ما كانت لتلين. فقد تأثر أبو سفيان ومن على شاكلته ممن أسرفوا فى عدائهم للإسلام بكرم النبى وسماحته، وقضت نبالة المسلمين وكرم أخلاقهم على جميع أسلحة قريش، وأودت بمعارضتهم. ورأى المشركون رأى العين كيف أن وعود السماء جميعها التى وُعدها المسلمون أيام الشدة والضيق قد تحققت بانتصار الإسلام وانتشاره. وهذا دليل جديد على صدق الرسالة التى جاء بها الصادق الأمين، فزالت آخر شكوك المشركين، ودخلوا فى دين الله آمنين. يقول «البلاذرى» فى كتابه «فتوح البلدان»[٦٠]: حدثنى عمر بن حماد بن أبى حنيفة قال: حدثنا مالك بن أنس قال: حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما يفتح من مصر أو مدينة عنوة، فإن المدينة فتحت بالقرآن». . صدق رسول الله، لقد فتحت المدينة بالقرآن، وفتحت مكة عنوة» ـ ولكن دون حرب أو قتال.

• الثبات وقوة العزيمة فى حُنَيْن

عندما رأى النبى ﷺ مقدمة جيش المسلمين ـ المكونة فى أغلبها من المكيين ـ تتراجع فى بداية معركة حُنَيْن، نتيجة لتعرضها لسهام الرماة المتمركزين فوق التلال والمرتفعات الأمر الذى أدى إلى اضطراب النظام بين صفوف المسلمين، فارتدوا جميعًا فى غير نظام وتقهقرت بدورها فيالق الأنصار والمهاجرين، وبقى النبى ومعه عمه العباس وفئة قليلة من المقاتلين وحدهم فى العراء عرضة لسهام المهاجمين المحتشدين. رأى النبى جيش المسلمين يرتد فثبت فى مركزه المحفوف بالخطر فى رباطة جأش وقوة

عزيمة تدعو إلى الإعجاب والتقدير. كان العدو يتقدم فى سرعة خاطفة، وكاد يكون بمفرده ولكن ذلك لم يؤثر فيه، فهو على ثقة ويقين أنه فى أمان ترعاه عناية الله العلى القدير. بقى النبى وحده فى الميدان مناديًا بأعلى صوته: «أنا النبى لا كَذِبْ، أنا ابن عبد المطلب». ونادى عمه العباس بصوته الجهورى القوى فى المهاجرين والأنصار يخبرهم بثبات النبى فى نفر قليل من المهاجرين والأنصار كثباته يوم أحد فى وجه العدو الزاحف. وأجابوا: لبيك لبيك، وارتدوا إلى المعركة مستبسلين. وبدأت الطمأنينة تعاود النبى حين رآهم يعودون واثقًا من نصر الله. واندفع المسلمون إلى المعركة لا يهابون الموت، فتمت هزيمة المشركين بفضل ثبات النبى والفئة القليلة التى أحاطت به. واغتبط المسلمون بنصر الله.

● الرحمة والعدالة فى رد سبايا هوازن

عقب عودة النبى ﷺ من غزوة حنين وحصار الطائف قافلين إلى مكة نزلوا «بالجعرانة» حيث تركوا غنائمهم وأسراهم، فقام النبى بتوزيع الغنائم على المسلمين بعد الاحتفاظ بالخمس لله ورسوله. وإنهم بالجعرانة إذ جاء وفد من هوازن قد أسلموا وهم يرتجون أن يرد النبى أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وخاطبه أحدهم فشرح بلواهم ومصابهم ومرارة ما حل بهم ـ فأشفق عليهم النبى وسألهم: «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟» قالوا: يا رسول الله، لقد خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا.. بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا، فهم أحب إلينا. فقال ﷺ: «أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم». ونَفّذَت هوازن قول النبى، فقال المسلمون: «وما كان لنا فهو لرسول الله» وتم إطلاق سراح الأسرى ورد السبايا ـ فهذا مشهد الرحمة. أما موقف العدالة فإن هؤلاء الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم عن طيب خاطر حبًا فى رسول الله منذ أن اتبعوه ودخل الإيمان قلوبهم، ما كانوا ليراجعوه لو أراد إطلاق سراح جميع الأسرى والسبايا، ولكنها المساواة فى الحقوق والعدل فى المعاملة، فما كان النبى الذى أرسل لإحقاق الحق ونشر العدل والمساواة أن يَتعدَّى هذه المبادئ السامية. فترك لأصحابه الحرية فيما يقررون. فكانت رحمته بهؤلاء المغلوبين وشفقته عليهم لا نظير لها فى تاريخ الحروب.

ومثلما فعل الرسول الكريم مع أهل مكة قائلاً لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» لم يفكر فى الانتقام من ثقيف أو الإساءة إليهم رغم استقبالهم له شر استقبال يوم أن ذهب إلى الطائف وأخرجوه من ديارهم شَرَّ إخراج، بل إنه رفض الاستجابة لدعوة أصحابه الدعاء عليهم بعد رجوعه عن حصارهم، بل دعا الله بهدايتهم. وعندما أسلمت ثقيف وجاء وفدهم إلى المدينة خرج إليهم يستقبلهم فى بشر وإكرام، وأنفق وقته يُعلمهم ويرشدهم وينصح لهم، فهو لا يريد لهم إلا الخير والسعادة والرشد فى الدنيا والآخرة.

عالمية الرسالة وإيفاد الرسل

تعتبر الحوادث والظروف التى أوجبت إيفاد الرسل إلى كافة أنحاء المعمورة لدعوة ملوكها وحكامها للدخول فى الإسلام جديرة بالدرس، فلو أن النبى قد أوفد رسله بعد إخضاع بلاد الغرب كلها لتم النظر إلى هذه الخطوة على أنها نزوع إلى السيطرة وبسط النفوذ من وجهة نظر الناقدين ـ لكن ماذا كانت حقيقة الموقف وقتها؟ لقد حدث ذلك بعد محاصرة المدينة فى غزوة الأحزاب بسنة واحدة، وما كان هناك أمل فى نجاة مسلم واحد، وحتى ذلك الوقت كان المسلمون أعجز من أن يطئوا بأقدامهم أرض مكة لأداء فريضة الحج، بل إن أعداء المسلمين كانوا أقوياء لدرجة أنهم أملوا شروطهم فى الصلح على المسلمين، وكان المسلمون مجفوفين بأعدائهم فى كل مكان من بلاد العرب، وبعض نفر من المسلمين هنا أو هناك ليس شىء يعتد به ـ لكن وعلى الرغم من هذه الظروف العصيبة كانت ثقة النبى فى ربه وإيمانه بالنظر للإسلام ثابتة وطيدة، وكان واثقًا وثوق اليقين بأن الإسلام سوف ينتشر ويسود، حتى يعم نوره كل فج عميق. فبالرغم من هذا الضعف البادى، يدعو النبى ملوك العالم الأقوياء إلى اعتناق دينه، وما كان ذلك إلا لثقته وإيمانه بقوة ربه، وهذا أبلغ رد على هذا النفر من المسلمين الذين يتشككون فى نجاح دعوة الإسلام فى عالم الغرب، بحجة أن الإسلام مفتقر إلى قوة دنيوية تحميه، أو إمبراطورية عظيمة تظاهره، لكن الحقيقة الناصعة ليست فى حاجة إلى من يظاهرها؛ لأنها هى فى نفسها قوة هائلة لا سبيل إلى قهرها. لقد أعلن النبى ﷺ منذ اللحظة الأولى أن رسالته للناس جميعًا، ولم يَألُ جهدًا فى سبيل تحقيق ذلك، فلم يكن من العجيب أن يدعو الملوك والحكام إلى نور الإسلام.

وثيقة

رسالة النبى ﷺ إلى هرقل ملك الروم(*)

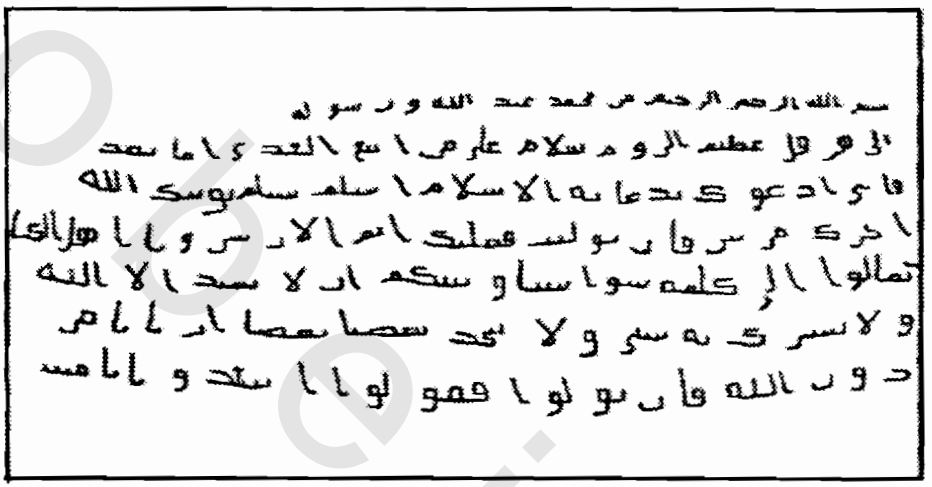

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين. و ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

أخلاق النبى الكريم فى الحرب والجهاد...

جمع الرسول ﷺ فى أخلاقه وصفاته كل مكارم الأخلاق والقيم النبيلة، فأخلاقه فى معاملاته كانت السماحة هى أظهر الأخلاق فيها ـ ما غضب لنفسه قط، إلا أن

(*) المصدر: كتاب «نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين» للشيخ محمد الخضرى ـ (ص: ٢٣٩)، وقد أورده البخارى ضمن حديث طويل، [الباحث].

تنتهك حرمات الله تعالى، فالسماحة تجذب القلوب النافرة، وتهدى النفوس الحائرة، وترد العقول الشاردة كما قال ﷺ. وبجوار هذه السماحة كانت العدالة التى يفرضها على نفسه من نفسه، فكان لا يعتدى على أحد، ولا يظلم أحداً، فهو نبى الرحمة. ولم تكن سماحته وعدالته ورحمته مقصورة على معاملاته الشخصية، بل إنها كانت تتعدى إلى كل المعاملات الاجتماعية والسياسة والحربية عملاً بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. ويأخذ بقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] فكان الرسول الكريم يأخذ بهذه الآداب القرآنية فى السلم وفى الحرب، فى المعاملات الشخصية مع أصحابه المؤمنين وفى معاملته لأعداء الإسلام، فهو ينتصر على الباغى، وإذا انتصر لا يقول ويل للمغلوب، ولكن يقول رحمةً وعفواً: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]. وبذلك تتألف القلوب وتهتدى لنور الإيمان.

لقد أبْدَى الرسول العظيم عند انتصاره على أعدائه بعد طول جهاد وصبر وعناء، من ضبط النفس والشهامة ما يتناسب مع مقامه كنبى ورسول ومؤسس دولة التوحيد والعدل والرحمة، وقائد عظيم لم يترك تاريخ الفتوحات والحروب من دخول الظافرين إلى المدن المغلوبة ما يشبه دخول محمد ﷺ مكة من حيث التسامح والنبل. فهو لم يذكر وقتها أفاعيل خصومه، ولا اضطهادهم وتعذيبهم لأصحابه، إنما ذكر دعوته، وذكر خير السّبُل فى الوصول إلى تحقيقها، وما يجب أن يفعل لإنجاحها. فإن كان قد أمر بتحطيم الأصنام التى دنست المسجد الحرام، فإن أهل مكة لم يكونوا موضع نقمته. ولأنهم كانوا يعرفون قدره وقدرته، فقد أسرهم نداء العفو «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فجعل منهم برحمته قوة فعالة فى خدمة الدين الجديد والأمة الجديدة، وضرب مثلاً رفيعًا للجمع بين القوة والرحمة، والقدرة والمغفرة. وكان لقدرته الفريدة على أن يجمع فى اهتمامه لأمته بين تدبير شئونها الدنيوية وتوجيه حياتها الروحية، وترسيخ قيم الدين الفريد وإقرار الحق، وهداية البشر. وأحرز فى كل هذا من النجاح فى شئون الدنيا والآخرة ما لم يتمكن من إحرازه نبى ولا رسول قبله.

• **الرحمة بالمسالمين من الأعداء**

لم يكن النبى ﷺ وخلفاؤه يتركون المقاتلين من المسلمين المتوجهين إلى الحرب بغير «وصايا مشددة» يحاسبونهم عليها فيما يتبعونه من خطة تجاه الرعايا المسالمين من أعدائهم، فعن «أنس»[٦١] رضي الله عنه أن النبى قال: «انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين». (رواه أبو داود). وعن «ابن عمر» رضي الله عنهما قال: إن رسول الله رأى فى بعض مغازيه «امرأة مقتولة» فأنكر ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان. (رواه البخارى). وروى داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس «أن النبى ﷺ كان إذا بعث جيوشه قال: لا تقتلوا أصحاب الصوامع». (رواه أحمد والبيهقى).

• **القتال لإعلاء كلمة الله**

عن «أبى موسى»[٦٢] رضي الله عنه أن أعرابيًا أتى النبى فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذْكَر، والرجل يقاتل ليرى مكانه. وفى رواية: يقاتل شجاعةً ـ فمن فى سبيل الله؟ فقال رسول الله «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله». (متفق عليه).

• **الدعوة إلى الإسلام.. شرط للقتال**

يقول الإمام القاضى «الوليد بن رشد»[٦٣] إن شرط الحرب هو بلوغ الدعوة باتفاق، بمعنى أنه لا تجوز المحاربة حتى يكون من نحاربهم قد بلغتهم الدعوة. ويجمع علماء المسلمين على ذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] أما الخلاف فى ذلك فيدور حول تكرار الدعوة عند تكرار الحرب ـ فمنهم من أوجب الدعوة، ومنهم من استحبها، ومنهم من لم يوجبها ولا استحبها. والسبب فى اختلافهم يكمن فى معارضة القول للفعل، حيث ثبت أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان إذا بعث سرية قال لأميرها: «إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام فإن

أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول إلى دار المهاجرين وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الفىء ولا فى الغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا، ادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم» ـ (حديث صحيح رواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه). وروى أحمد والبيهقى وأبو يوسف وأبو يعلى والطبرى عن ابن عباس قال: «ما قاتل رسول الله ﷺ قومًا قط إلا دعاهم». لأن الأصل فى الحرب فى التصور الإسلامى أنها وسيلة للدعوة وليست غاية فى ذاتها، لذلك فإن الحرب تفقد شرعيتها إذا لم تسبقها تلك الدعوة.

• الدعاء عند القتال

من آداب القتال فى الهدى النبوى الشريف أن يستغيث المجاهدون بالرب سبحانه، ويستنصروه، فإن النصر بيد الله. فكان من دعائه ﷺ إذا غزا: «اللهم أنت عضدى ونصيرى، بك أجول، وبك أصول، وبك أقاتل» ـ (رواه أصحاب السنن). وفى يوم بدر كان النبى ﷺ أشد ما يكون إشفاقًا مما يصير إليه أمر الإسلام إذا لم يتم النصر للمسلمين. واستقبل محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ القبلة واتجه بكل نفسه إلى ربه، وجعل ينشده ما وعده ويهتف به أن يتم له النصر. وبالغ فى التوبة والدعاء والابتهال وجعل يقول: «اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى. اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد». كما أنه ﷺ دعا يوم الأحزاب، فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم» (رواه البخارى ومسلم).

• الحرص على الشورى مهما كانت النتائج

أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ أن يقرر «سُنّة المشاورة» فى هذه الأمّة بالفعل، فكان عليه الصلاة والسلام يستشير أصحابه بغاية اللطف، ويصغى إلى كل قول، ويرجع عن رأيه إلى رأيهم، كما حدث بخصوص موقع جيش المسلمين فى بدر. وفى غزوة أحد نزل

على رأيهم بالخروج من المدينة لمواجهة العدو على الرغم من ميله إلى ملاقاة العدو بها وعدم الخروج إليه. وبعد الدرس الذى لاقاه المسلمون فى أحد بسبب مخالفة بعض المؤمنين لأوامر النبى نزل قوله ـ تعالى ـ مخاطبًا نبيه الكريم لتأكيد مبدأ المشاورة بعد الدرس الذى لاقاه المسلمون فى هذه الغزوة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

. . . يقول السيد «رشيد رضا» فى تفسير «المنار»[٦٤] فى شرح الآية: «وشاورهم فى الأمر العام الذى هو سياسة الأمة فى الحرب والسلم والخوف والأمن، وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية ـ أى داوم على المشاورة وواظب عليها، كما فَعَلْتَ قبل الحرب (غزوة أحُدْ) وإن أخطأوا الرأى فيها، فإن الخير كل الخير فى تربيتهم على المشاورة بالعمل، دون العمل برأى الرئيس وإن كان صوابًا، لما فى ذلك من النفع لهم فى مستقبل حكومتهم إن أقاموا هذا الركن العظيم «المشاورة» فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد فى الأكثر. وكان يشاور أصحابه فى المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه من كتاب الله تعالى».

. . . ويروى الإمام القرطبى[٦٥] فى تفسيره ما قيل فى أمر الشورى ـ ولعل من أجمعها ما جاء عن الحسن البصرى والضحاك قالا: «ما أمر الله ـ تعالى ـ نبيه بالمشاورة لحاجة منْهُ إلى رأيهم، وإنما أراد أن يُعلمهم ما فى المشاورة من الفضل ولتقتدى به أمته من بعده» ـ ثم ذكر بعد هذا أحاديث عن رسول الله فى الشورى منها: «ما ندم من استشار». ويُوضِّح «القرطبى» أن هذا الأمر من الله لرسوله بمشاورة أصحابه وإن كان قد أغناه عن رأيهم بالوحى. ولقد تجلى أمر الشورى واضحًا فى الغزوات التالية على غزوة أحُد، حتى فُتحت مكة، فلم تكن الآلام والتضحيات التى قدمها المؤمنون فى أحُد سببًا للتراجع عن مبدأ الشورى ولكن تدعيمًا له فى مستقبل الأيام. فرغم الانكسار المؤقت الذى واجهه المسلمون فى هذه الغزوة، لم يأت هذا كذريعة للانقلاب على الشورى لعدم صواب رأى الجماعة أو لمخالفتهم أمر قائدهم، بل جاءت كل هذه الدروس تدعيمًا لمبدأ المشاورة لمصلحة أمة الإسلام.

• الإحسان إلى الأسرى

عامل الإسلام الأسرى معاملة إنسانية رحيمة، فرسول الهدى والرحمة للعالمين يدعو إلى إكرامهم والإحسان إليهم وإطعامهم وكسوتهم وعدم التفريق بين أعضاء الأسرة الواحدة منهم ودعوتهم إلى الإسلام وعدم إكراههم عليه والمن على من يرضى إسلامه منهم ويمدح الذين يبرونهم ـ فقال فى الحديث الذى يرويه أبو موسى الأشعرى: «فكوا العانى ـ أى الأسير ـ وأجيبوا الداعى، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض». وهذه المعاملة الرحيمة من جانب الرسول ﷺ لأسرى الحرب لم يألفها الناس من قبل، واقتفى المسلمون أثره فى معاملة أسراهم. وهذه المعاملة الرحيمة أثَّرت فى نفوس كثير من أسرى المسلمين فعرفوا للإسلام نبله وسماحته. فكان المسلمون يطلقون سراح أسراهم بمجرد تسلم الفدية من الأغنياء، ويطلقون سراح الفقراء بلا مقابل، وكان على من يعرفون الكتابة والقراءة أن يعلم كل واحد منهم عشرة من غلمان المسلمين مقابل إطلاق سراحه. وما أغلظ المسلمون لأسير من المشركين رغم ما لاقوه على أيديهم من إيذاء قبل وقوعهم فى الأسر. وكان الرسول ينهى عن تعذيب الأسير أو التمثيل به. وإن كان هناك من الأسباب التى تستوجب قتله، فقد كان يأمر بقتله قتلاً كريمًا سريعًا دون تعذيب بالعطش أو الجوع أو غيرهما من وسائل الإكراه والأذى.

• الوفاء بالعهد وتأمين الرسل

الوفاء بالعهد فريضة مؤكدة بنصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، كما أن تأمين الرسل من قيم الإسلام وأخلاقياته التى أوصى بها الرسول الكريم. فعن أبى رافع[٦٦] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى لا أخيس بالعهد، ولا أحبس الرسل» (رواه أبو داود والنسائى). وقد اشترط القاضى أبو يوسف صاحب كتاب «الخراج»[٦٧] للرسول شروطًا وجب على المسلمين أن يوفوا بها، ولا يصح لهم أن يغدروا برسل العدو، حتى ولو قتل الكفار أسرى أو رهائن مسلمين عندهم، فلا تقتل رسلهم لقول النبى ﷺ «وفاءً بغدر خير من غدر بغدر». وينطبق هذا أيضًا على الوفاء بالعهود والمواثيق. ولقد ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى الوفاء بالعهود بالقول والعمل، حتى أنه لم يسمح لبعض أصحابه بالاشتراك معه فى القتال فى غزوة بدر

لوعدهم كفار قريش بذلك، مؤثرًا وفاءهم بعدهم على نصرتهم له فى المعركة، ولأنه أراد ﷺ ألا يشجع عند أصحابه نقض العهد. وفقًا لما أورده المنذرى فى «مختصر صحيح مسلم»[٦٨] حول عدم اشتراك حذيفة بن اليمان وأبى جبيل فى غزوة بدر.

• العفو عند المقدرة

كانت قريش التى ائتمرت بالنبى ﷺ لتقتله وعذبت أصحابه وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم، وحاربته فى بدر وأحُد وحاصرته فى الخندق وألَّبَتْ عليه قبائل العرب للقضاء عليه وعلى دعوته. وباتت فى مكة ومصيرها مغلق على كلمة منه ـ لكن رسول الإسلام ونبى الرحمة الذى لا يعرف العداوة، أو يريد لها أن تقوم بين الناس، قد أمكنه الله من عدوه، فقدر فعفا، فضرب بذلك للبشرية كلها مثلاً فى البر وسمو النفس فسألهم: «ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم ـ قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

• النهى عن الحقد على الأعداء

الحرب عند المسلمين لا تعنى الحقد على الكافرين، ويدل على ذلك أن بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قالوا لرسول الله ﷺ عند منصرفهم من حصار الطائف: «ادع الله على ثقيف. فقال: «اللهم اهْد ثقيفًا وَائت بهم» ـ وهذا يعنى أن الحرب المشروعة فى الإسلام ليست إلا لممارسة الأمرَ بالمعروف والنهى عن المنكر، ومن ثم فإن الدعاء من المسلمين لا ينبغى أن يتجه إلى غيرهم إلا بالهداية والصلاح؛ لأن هذه الغاية هى الحكمة من مشروعية الجهاد فى الإسلام.

• النهى عن المُثْلَة

يروى ابن هشام[٦٩] فى سيرته أن قريشًا بعثت فى فداء الأسرى وفيهم سهيل بن عمرو الذى كان يهجو الرسول الكريم، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو، ويدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيبًا فى موقف أبدًا ـ فقال رسول الله له: «إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه». وأوضح ابن

هشام أن سهيل بن عمرو قال لأهل مكة لما أرادوا الارتداد بعد وفاة النبى ﷺ : «لا تكونُنَّ آخر من أسلم وأول من كفر» ـ فلم يرتدوا .

● الحرب خدعة

اتفق العلماء على جواز خداع الكفار فى الحرب ، إلا أن تكون الخدعة فى نقض عهد أو أمان فلا يحل الخداع . فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «الحرب خدعة» ـ (رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجه) . ففى غزوة الخندق أتى رجل من المشركين هو نعيم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ مسلمًا وعرض عليه تنفيذ أى أمر يريده النبى ، فقال له صلوات الله عليه : «إنما أنت رجل واحد فينا ، ولكن خَذِّلْ عنَّا إن استطعت فإن الحرب خدعة» . فخرج الرجل وأوقع بين قريش وغطفان من جانب ويهود بنى قريظة من جانب آخر ، فضاعت الثقة بينهم ، وأصبح كل فريق منهم يتهم الفريق الآخر بالغدر والخيانة ، وأذهب الله كيدهم ، وكفى المؤمنين القتال .

● الشجاعة والثبات عند لقاء العدو

كان النبى ﷺ أشجع الناس وأعظمهم خُلُقًا وأكثرهم ثباتًا عند لقاء العدو ، فكان الشجاع هو الذى يقرب منه صلوات الله عليه إذا دنا العدو لقربه منه ـ عن ابن عمر[٧٠] رضي الله عنهما قال : «ما رأيت أشجع ، ولا أنجد ، ولا أجود ، ولا أرضى ، ولا أفضل من رسول الله ﷺ» . وتوضح غزوتا أحُد وحُنَيْن مدى جرأة النبى وشجاعته النادرة ، فعندما تفرقت جموع المسلمين فى القتال مرة بسبب مخالفة أمره فى أحد ، ومرةً أخرى بسبب الخيلاء وكمائن العدو فى حنين . ثبت الرسول ثباتًا عجيبًا ومعه نفر من أصحابه امتد أثره إلى نفوس أولئك الفارين من المؤمنين ، فعادت إليهم من ذلك الثبات والثقة بالله رباطة الجأش وقوة العزيمة . ويوضح الإمام الغزالى[٧١] فى وصفه لشجاعة الرسول قائلاً : «كان ﷺ أنجد الناس وأشجعهم . قال على رضي الله عنه : لقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، وكان أشد الناس يومئذ بأسًا . وقال أيضًا : كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . وقال عمران بن حصين : ما لقى رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب» .

• **جواز موادعة الأعداء**

يرى القاضى أبو يوسف فى كتابه «الخراج»[٧٢] أن رسول الله ﷺ وادع قريشًا عام الحديبية وأمسك عن محاربتهم، فللإمام أن يوادع أهل الشرك إذا كان فى ذلك صلاح الدين والإسلام، وكان يرجو أن يتألفهم بذلك على الإسلام.

• **الوفاء للأنصار**

جاء فى كتاب «الإيمان»[٧٣] لشيخ الإسلام ابن تيمية ما يدل على وفاء الرسول الكريم لمن أيَّدَه ونصرهُ فى إقامة الدين، لا سيما الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأهليهم، كما أنهم من الذين قام على سواعدهم الدين وعلت رايته إلى جانب إخوانهم من المهاجرين. ويُوضِّح **«ابن تيمية»** أن حُب الأنصار آية الإيمان، كما أن بغضهم آية النفاق، مستدلاً بقول النبى ﷺ «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر» وقوله أيضًا صلوات الله عليه: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار». الأمر الذى يؤكد أن الرسول الكريم بادل أنصاره وفاءً بوفاء وحبًا بحب، ولزم جانبهم مقيمًا بينهم إلى أن أتم دعوته وأكمل رسالته.

* * *

المبحث الثالث: تأكيد الحقائق .. وتفنيد الأكاذيب

يعود انتشار الإسلام بسرعة فى الجزيرة العربية لبساطته وسهولة تصور مبادئه وفهمها، فرغم المقاومة الأولية التى لقيها الإسلام من العرب المتعصبين لدياناتهم وديانات آبائهم وأجدادهم الوثنية، إلا أن الإسلام عَمَّ وساد بسرعة هائلة. فلم يكد النبى ﷺ يلحق بالرفيق الأعلى حتى كان الإسلام قد عم الجزيرة العربية كلها ـ فبساطة الإسلام ويسره وسهولته كانت السبب الأكبر وراء انتشار الإسلام على مدى قارات العالم الوسيط، ووصوله إلى مناطق لم يصل إليها أى جيش إسلامى فاتح كما هو الحال فى أندونيسيا وبلاد شرق آسيا، فقد انتشر الإسلام فى هذه البلاد انتشاراً ذاتيّا عن طريق التجار والرحالة الذين كانوا يحملون الإسلام ويعرضونه فى بساطة ويسر فُتقْبل عليه الناس لأنه يلائم الفطرة البشرية. وهذا الدليل يدحض افتراءات المستشرقين المتعصبين الذين يزعمون أن الإسلام انتشر بحد السيف. فأى سيف ذلك الذى أوصل الإسلام إلى جنوب شرق آسيا وإلى القارة الأفريقية. فالإسلام بدون دعاة ومبشرين يتغلب على المسيحية فى هذه المناطق باعتراف المبشرين المسيحيين أنفسهم، وما ذلك إلا لأنه دين المساواة المطلقة بين الناس، لا يعرف سيادة طبقة على أخرى أو يفرق بين جنس وجنس ولا لغة ولغة، فالناس جميعًا لآدم وآدم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم ـ فإنه رغم بساطته فإنه دين الحق وكتابه الكريم «القرآن» لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لا بُد أن نتعرف على حياة الرسول الكريم وعرب الجزيرة العربية قبل أن نُقارن بين المسيحية والإسلام لنعرف ضرورة الحرب فى نشر دين السلام، فقد كان الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ زاهداً أو يدعو إلى الزهد مثل عيسى عليه السلام. إذ كان فى المدينة لا يمسك من المال إلا بقدر حاجته فى يومه، وكان ما يأتيه من المال صباحًا لا يُبْقى منه شيئًا حتى منتصف النهار، وما يأتيه مساءً لا يبقى منه شيئًا حتى الصباح،

وأحيانًا لم يكن عند زوجاته طعام يهديه إلى فقير، ووصاياه كثيرة بعون الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وأبناء السبيل والبؤساء. وأقام نظامًا من العدالة الاجتماعية بين الفقراء والأغنياء، وجعل للأوليين حقًا معلومًا فى أموال الأخيرين يؤدى إليهم سنويًا باسم الزكاة، وأضاف إليها الصدقات وجعلها القرآن قرضًا حسنًا لله. وبذلك أقام الإسلام وللأبد نظامًا رائعًا لحل مشكلة الفقراء والأغنياء فى المجتمع. وهو ما لم يفكر فيه عيسى ولا رسول قبله، وبذلك يحمل الإسلام بحق رسالة الإصلاح الاجتماعى الواسع الذى يقى أمته شرور الحقد والضغينة والصدام. وتدل «صحيفة المدينة» التى وضعها الرسول الكريم بين المهاجرين والأنصار واليهود على ما أراد لهم من الائتلاف ولذلك أسماهم بالأمَّة، وجعل مرجع الخلاف بين أفرادها والحكم فيها إلى الله ورسوله ـ ذلك لأنه لم يكن هناك نظام قانونى ليثرب قبل هجرته إليها، وأنه وضع هذه المعاهدة لتكون بمثابة دستور سياسى واجتماعى لهذه الأمَّة الجديدة التى ستتحول بعده إلى إمبراطورية ضخمة يحكمها هذا الدستور الذى كانت فى أشد الحاجة إليه.

أمَّا ما يقوله **«المسيحيون الغربيون»** من أن الرسول تخلى فى المدينة عن الحياة الروحانية[٧٤] ولجأ إلى السيف، فليس بصحيح أنه تخلى عن الحياة الروحية فيها بدليل واضح هو أن الوحى لم ينقطع عنه، وبالتالى لم ينقطع نزول الآيات القرآنية عنه حتى أيامه الأخيرة ﷺ، والصحيح أنه دَعَّم الحياة الروحية بالسيف حين اضطر إلى ذلك، فقد كانت المدينة فى طريق القوافل التجارية لمكة المصعدة إلى الشام والمنحدرة منها، وخشى الرسول أن تعد قريش جيشًا لغزو المدينة، فكان يرسل بعوثًا للاستطلاع خشية أن تقوم بغارة مفاجئة. يدل على ذلك أكبر الدلالة قلة عدد ما تسميه كتب السيرة «سرية» أى كتيبة حربية، إذ كانت تقل حتى لا يتجاوز أفرادها عدد أصابع اليدين. ومن الخطأ تسميتها سرايا أى كتائب، إنما كانت بعوثًا يراد بها الاطمئنان على الطرق إلى المدينة خشية أن تغزوها قريش فجأة، ولم يحدث أن أعد الرسول جيشًا للثأر من قريش. وكما أشرنا من قبل، فإن الرسول الكريم لم يقاتل إلا فى تسع غزوات، وحتى هذه التسع لم يكن فى بعضها التحام بين جيشين مثل غزوات الخندق وبنى قريظة وفتح مكة وتبوك.

ولم يكن الرسول الكريم أوَّلَ نبى حارب، ولا آخر مُصْلح اضطر أن يحمل

السلاح. ومن يستعرض رسالات السماء الأولى سوف يجد أن أكثرها ذهب ضحية الكيد والمكر السيئ والعدوان الآثم ـ وما دامت طبيعة الحياة لا تخلو من أعداء للحق، فإنه ليس بغريب أن يضع أهل الحق تجارب الماضى الطويل نصب أعينهم، وأن يتأهبوا للكفاح، فليس من المنطق أن يقف أصحاب الحق مكتوفى الأيدى لا يدفعون عن أنفسهم البأس والعدوان، إن التمسك بالسلم فى هذه الحال رضى بالفناء وقبول بالظلم، فليس من العيب أن تحمل السلاح، وإنما العيب أن تعتدى بسلاحك على الوادعين وأن تروع به الآمنين. هذا هو منطق الواقع الذى تواكب معه فرض القتال على المسلمين، وليس على المسلمين فحسب ولكن من قبلهم النصارى واليهود ـ فلم يكن القتال فريضة انفرد الإسلام بتقريرها، بل سبقته الأديان الأخرى إليها. فلا بد من دفاع يحفظ به أتباع موسى وعيسى ومحمد ـ عليهم جميعًا الصلاة والسلام ـ معابدهم التى يؤدون فيها حق الله عليهم: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحج: ٤٠]. فهى حرب أذن الله بها لتكون سياجًا للهدى وصيانة لمعالمه. لم تشعلها مآرب النفوس وتضارب المصالح، ولكن فرضتها دواعى الغضب لله ـ الآية واضحة ـ فالقتال ليس دفاعًا عن مساجد المسلمين فحسب، وإنما عن كنائس النصارى وبيع اليهود وصوامع العباد كيفما تكون ـ على الرغم من هذا الوضوح إلى درجة اليقين يأتى فريق الملحدين الحانقين على الإسلام يظاهرهم فريق آخر من أهل الكتاب الفاشلين، ليتحدثوا عن القتال فى الإسلام وكأنه بدعة انفرد بها وحده فى الأولين والآخرين. بل ومن العجيب أيضًا أن يأتى كثير من المستشرقين المنتمين للغرب الذى اشتغلت جيوشه بالإبادة والسلب والنهب وراحت تثير الرعب والفزع أينما حلت لكسر شوكة الأمم المغلوبة على أمرها، ومن بينها دول وشعوب المسلمين يتحدثون فى بحوث نشروها يثبتون فيها أن الإسلام قام على السيف، فأخضعوا نزاهة العلم لنزعات الهوى والتعصب الذميم.

. . . ويُشير الشيخ محمد الغزالى[٧٥] إلى التناقضات بين سلوك المسلمين وسلوك المسيحيين قائلاً: «من النقائض التى ينبغى أن يقف عندها المنصفون أن الإسلام دين يدعو إلى العدل والفضل، فهو يقول: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ**

عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] أمر بالعدل وَرَغَّبَ فى الفضل، فاعترف بالعقوبة وأثاب على العفو. أمَّا المسيحية فقررت السماحة رأسًا، وأوصت بأن «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر» ـ لكن عندما طبق أهل كل دين ما عندهم، وأقاموا فى أرض الله دولتهم، كان المسيحيون يبادرون إلى لطم من يلقاهم، وكان المسلمون يقابلون السيئة بالحسنة. فالواقع ـ إذن ـ يقول إن للمسلمين وللنصارى أخطاء لا يُسْأَل عنها الإسلام ولا المسيحية، **أما إذا كان الحديث عن السيف وانتشار المبادئ به، فآخر من يتكلم عن ذلك الغربيون؛ لأن ما اقترفوه فى الحروب من جرائم وآثام لا ينتمى إلى خلق أو دين»**.

انتشار الإسلام بالقرآن

الواقع الثابت فى أخبار الدعوة الإسلامية أن المسلمين كانوا هم ضحايا القسر والتعذيب، قبل أن يقدروا على دفع الأذى من مشركى قريش فى مكة المكرمة، فهجروا ديارهم وتغربوا من أهليهم حتى بلغوا إلى الحبشة فى هجرتهم. فهل يأمنون على أنفسهم فى مدينة عربية قبل التجائهم إلى «يثرب» وإقامتهم فى جوار أخوال النبى ﷺ، مع ما بين المدينتين من التنافس الذى منح للمسلمين بينهما ثغرة للأمان؟ ولم يكن أهل يثرب ليرحبوا بمقدمهم لولا ما بين القبيلتين الكبيرتين فيها «قبيلتى الأوس والخزرج» من نزاع على الإمارة، فتح بينهما كذلك ثغرة أخرى يأوى إليها المسلمون بعد أن ضاق بهم جوار الكعبة، وهو الجوار الذى لم يضق من قبل بكل لائذيه فى عهد الجاهلية. ولم يعد المسلمون قط إلى القوة إلا لمحاربة القوة التى تصدهم عن الإقناع، فإذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها لأن القوة لا تحارب بالحجة والبينة، وإذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء، لذلك سالموا الحبشة ولم يحاربوها، لكنهم حاربوا الفرس لأن كسرى أرسل إلى عامله فى اليمن يأمره بتأديب النبى أو ضرب عنقه وإرسال رأسه إليه. وحاربوا الروم أيضًا لأنهم أرسلوا طلائعهم إلى تَبُوك فبادرهم النبى ﷺ بتجهيز جيشه والسير به إلى تخوم الحجاز الشمالية، وعاد الجيش بغير قتال حين وجد فى تبوك أن الروم لا يتأهبون للقتال والزحف على بلاد العرب. ولم يفاتح النبى أحدًا بالعداء فى بلاد الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، إنما كتب إلى الملوك والأمراء يبلغهم دعوته بالحسنى ويدعوهم إلى الإسلام، ولم تقع الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين وجنود الفرس والروم إلا بعد تحريضهم القبائل العربية فى

العراق والشام على غزو الحجاز وإعدادهم العدة لقتال المسلمين. وفى الجزيرة العربية لم تقع حرب بين المسلمين وقبائلها إلا أن تكون حرب دفاع أو مبادرة إلى اتقاء الهجوم المبيت فى أرض تلك القبائل «غزوة بنى المصطلق وغزوة حنين» ـ وكانت العداوة سافرة بين المسلمين ومشركى قريش لا يكتمها المشركون، ولا يخفون أنهم عقدوا النية على القضاء على النبى محمد وأصحابه وفض العرب من حوله وإيذاء كل من يدخل فى الدين الجديد. فلم تكن بين المسلمين والمشركين حالة غير حالة الحرب إلا فى أيام صلح الحديبية، ثم عادت الحرب سجالاً بين الفريقين حتى تم فتح مكة وانتقلت الحرب من قتال سافر بين المشركين والمسلمين إلى قتال بالدس والمكيدة بين هؤلاء وزمرة المنافقين.

أما قبائل الجزيرة العربية فى غير قريش فلم يحاربهم المسلمون إلا حرب دفاع أو حرب مبادرة لاتقاء الهجوم من جانبها. وأخبار السرايا الإسلامية فى بلاد العرب معروفة بأسبابها ومقدماتها ـ وكلها حروب دفاع واتقاء هجوم ـ بينما تعود أسباب حرب المسلمين مع اليهود كلها إلى نقضهم العهد ومحاولة قتل النبى أو التحريض على المسلمين والتحالف مع أعدائهم بدءاً من يهود المدينة «بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة» إلى غزو خيبر حيث يهود جزيرة العرب. فالانتشار الأكبر للإسلام لم يأت عن طريق المواجهة والحروب، إنما جاء عن طريق «القدوة والمثال والإقناع» فنظرة على خريطة العالم فى الوقت الحاضر توضح دون شك أن السيف لم يعمل فى انتشار هذا الدين إلا القليل مما قام به الإقناع والقدوة الحسنة. فالبلاد التى ندرت فيها حروب الإسلام هى البلاد التى يقيم فيها اليوم أكثر مسلمى العالم فى القارتين الآسيوية والأفريقية. فلم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد إلا القليل الذى لا يجدى ولا يؤثر فى تحويل الآلاف عن دينهم. كما أن مقارنة بسيطة بين البلاد التى قامت فيها الدولة الإسلامية والبلاد التى قامت فيها الدول المسيحية من القارة الأوروبية، فلم يبق فى هذه القارة أحد على دينه الأول قبل دخول المسيحية. بينما أقام المسلمون قرونًا طويلة فى الأندلس، وعندما خرجوا منها تحول كل أبنائها إلى المسيحية تحت العنف والإكراه الذى مارسته محاكم التفتيش وما قامت به من فظائع ضد المسلمين واليهود. وفى خارج القارة الأوروبية نجد أن ملايين من المسيحيين واليهود بل والوثنيين أو أشباههم اختاروا البقاء على دينهم وعاشوا فى كنف الدولة الإسلامية دون اضطهاد؛ لأنه ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ فى شريعة الإسلام ودولته.

فالإسلام لا يبسط يده بالأذى إلى أحد من خلق الله، وقد بعث نبيه رحمة للعالمين وبركة للناس أجمعين. فالقتال مشروط بدفع البغى وكسر شوكة المعتدين، ولا يجوز لمسلم أن يعتدى وإلا تعرض لغضب الله. أما إذا اختفى العدوان، وامتنع التحدى، فالصداقة والتواصل والمودة والتراحم عواطف لا حرج عليها بين المسلمين وأهل الكتاب أجمعين. ويكفى أن الله ـ جل وعلا ـ لم ينظر إلى اختلاف الدين فى اختيار الزوجة، ويَسَّر للمسلمين واليهود والنصارى أن تجمعهم مائدة واحدة وفراش واحدة. فالدين الذى يسمح باختلاف الدين فى بيت صغير، تتلاقى فيه الوجوه وتتقارب الأبدان وتشتبك المشاعر، لا يضيق البته باختلاف الدين فى وطن كبير تتسع فيه المصالح وتتعدد فيه الحاجات والكفايات، ويستحب فيه التعاون إلى بلوغ الغايات. بيد أن الإسلام وإن آثر السلام، فإنه يبغض النوايا السيئة، وينبه أعداءه إلى أنه لا يجور لكنه أيضًا لا يضام. وكما يحارب الإسلام دفعًا للعدوان، فإنه يعبئ كل قواه لمنع الفتنة، والفتنة التى ذكرها القرآن مرارًا تعنى استغلال السلطة لمصادرة الحق ومطاردة أهله، كما فعل ويفعل ألوف الطغاة قديمًا وحديثًا. فالإسلام لا يضغط على أحد حتى يلجئه للإيمان بالله واليوم الآخر، وفى نفس الوقت لا يقبل من قوة غاشمة أن تضطهد المؤمنين، وتعيدهم إلى الجاهلية السابقة على الإسلام. فالجو الذى ينشده الإسلام هو الجو النقى الذى يتنفس فيه الإنسان هواء الحرية الطليق ملء رئتيه. يقبل المرء فيه على الرأى الذى يرى فيه الصواب، فالإسلام يبنى جهاده على أن الإكراه لا يؤسس عقيدة «فلا إكراه فى الدين».

لذلك، فإنه على الغربيين أن يخففوا من غلوائهم، وألا يستمروا فى قولهم إن الرسول استغل الدين للسلطة والقوة، وإنه طبق نشر الإسلام بالسيف. والحقيقة أنه إنما نشره بالقرآن؛ لأن كثيرين ممن سمعوا تلاوته كانوا يشعرون أنهم فى الحضرة الإلهية على نحو ما نعرف عن عمر بن الخطاب فى قصة إسلامه. فإنه خرج يومًا من داره قبل دخول الإسلام حاملاً سيفه ليقتل محمداً ﷺ كى يريح قريشًا منه، ولقيه شخص من عشيرته وعرف بقصده فأخبره بأن يرجع إلى أهل بيته أولاً ليقيم أمرهم، وعندما دخل على أخته وضربها ونظر، فإذا بكتاب فى ناحية من البيت فلم يزل بها حتى أعطته له، وبعد قراءته بعض آيات القرآن، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وكأنما أمسكت الآيات بخناقه فنطق بالشهادتين، وأغمد سيفه، وذهب إلى الرسول

وأعلن إسلامه. ومثل عمر كان كل من دخل الإسلام قبله وبعده؛ لأن القرآن يشعر من يسمعه أنه فى الحضرة الإلهية، وهو وجه مهم من وجوه إعجازه لم يلتفت إليه الأسلاف فضلاً عن روعة بيانه وبلاغته. فبالقرآن لا السيف[٧٦] دخل الناس أفواجًا فى دين الله، وآمنوا برسول الله ورسالته، كما دخلوا فى الدين الجديد لما يحمله القرآن والإسلام من تعاليم سمحة، ولم يجبر أحدًا من الأمم المفتوحة على الدخول فيه، إذ كفل الحرية الدينية للناس جميعًا، ودخلت فيه أمم كثيرة دون إشهار سيف أو سلاح أو تبشير، وإنما بقوته الذاتية وما يحمله من بساطة وسمو تتواءم مع فطرة الإنسان التى فطره الله عليها.

رفض الإسلام للتعصب والعنف والتطرف والإرهاب

الإسلام دين الرحمة والتسامح، يدعو إلى العدل والسلام، ويصون حرية الإنسان وكرامته. وهذه ليست شعارات يرفعها من يدافع عن الإسلام، وإنما هى مبادئ أساسية راسخة قام عليها بنيان الإسلام. فقد أرسل الله نبيه محمدًا ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] كما ورد ذلك فى القرآن الكريم. ووصف النبى الكريم رسالته بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد). ومنح الإسلام الإنسان حرية الاختيار حتى فى أمور الاعتقاد: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. والدعوة إلى الإسلام تقوم على الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى لا على الإكراه والإرغام. فلا إكراه فى الدين. يقول الإمام الحافظ ابن كثير[٧٧] فى شرح هذه الآية: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]: «أى لا تكرهوا أحدًا على الدخول فى دين الإسلام، فإنه واضح جلى دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحدًا على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرهًا مقسورًا».

كما أمر الإسلام بالعدل والإحسان، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والإفساد فى الأرض، ودعا إلى مقابلة السيئة بالحسنة، وقد عفا النبى ﷺ عن أهل مكة عند فتحها رغم كل الذى صنعوه معه ومع أصحابه من الظلم والاضطهاد والقتل

والتعذيب، وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». والإسلام دين لا يعرف التعصب على الإطلاق، وبالتالى فإنه لا يدعو أتباعه إلى التعصب. ومصادر الإسلام فى القرآن والسنة لا تشتمل على شىء من هذا القبيل، فالدعوة إلى الإسلام ـ كما يشير القرآن الكريم ـ تقوم على أساس من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن ـ كما أشرنا من قبل ـ وهذه الأساليب بعيدة تمامًا عن كل شكل من أشكال التعصب، ومن هنا رأينا النبى الكريم يقول لكفار مكة بعد رفضهم دعوته إلى الإسلام: ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [الكافرون: ٦].

وبالنسبة للأديان السماوية السابقة على الإسلام، يعتبر الإيمان بأنبياء الله السابقين على النبى محمد ﷺ عنصرًا أساسيًا من عقيدة المسلم ـ وهذا ما يشير إليه القرآن فى وضوح تام: ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٦]. فالموقف الإسلامى إزاء الأنبياء جميعًا هو عدم التفريق بين أحد منهم. وتلك صورة التسامح الدينى التى لا مثيل لها لدى أتباع أى دين من الأديان. فهل هناك مجال للتعصب بأى شكل من الأشكال فى تعاليم دين بهذا الوصف؟

يدعو الإسلام الناس جميعًا إلى التآلف والتعارف رغم الاختلافات التى بينهم: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات: ١٣]، كما يدعو الإسلام المسلمين فى صراحة ووضوح إلى التعايش بسلام مع غير المسلمين كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة: ٨]. والإسلام دين يدعو إلى الصفح والعفو ﴿ **وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ويدعو إلى مقابلة الإساءة بالإحسان على أمل أن ينقلب العدو إلى صديق، يقول القرآن الكريم: ﴿ **وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت: ٣٤].

من كل ما سبق يتضح أن إلصاق تهمة التعصب بالإسلام لا تقوم على أساس،

وليس لها سند من تعاليم الإسلام. وإذا كان بين المسلمين بعض المتعصبين أو المتطرفين أو الإرهابيين، فلا يرجع ذلك بأى حال من الأحوال إلى تعاليم الإسلام، وإنما مرده إلى فهم خطأ وتأويل باطل لتعاليم الإسلام، والإسلام لا يتحمل تبعة ذلك. وعلى هذا ينبغى التفريق بين التعاليم السمحة للإسلام وبين السلوكيات الخاطئة لبعض المسلمين، ويجب التأكيد على أن ظاهرة التعصب تعرفها جماعات كثيرة تنتمى إلى كل الأديان. والإرهاب أصبح ظاهرة عالمية وليس ظاهرة إسلامية، فلا يختص بها أتباع دين معين دون بقية الأديان، وهذه حقيقة ماثلة أمام أعين الجميع فى عالمنا المعاصر. فهل الإسلام هو المسئول عن إفراز هذه الظاهرة العالمية بين أتباع كل الأديان؟

الإسلام دين السلام

كلمة الإسلام مشتقة من الأصل ذاته الذى اشتق منه لفظ السلام. وقد وصف الله نفسه فى القرآن الكريم بأنه السلام، وتحية المسلمين هى السلام تذكيراً لهم باستمرار بأن السلام هدف رئيس لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان، والمسلم يتجه فى نهاية صلاته كل يوم خمس مرات بتحية الإسلام «السلام». وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] من هنا يتضح الطابع السلمى للإسلام، فليس هناك مكان فى هذا الدين للعنف أو التشدد أو التعصب أو التطرف أو القهر والإرهاب وترويع الآمنين، أو الاعتداء على حياتهم وممتلكاتهم. فمقاصد الشريعة الإسلامية تتمثل فى حماية الحقوق الأساسية للإنسان، وبصفة خاصة حماية حياته ودينه وعقله وأسرته وممتلكاته. ومن هنا حَرَّم الإسلام الاعتداء على الآخرين بأى شكل من الأشكال لدرجة أنه جعل الاعتداء على فرد واحد من أفراد الإنسانية كأنه اعتداء على البشرية كلها ـ كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]. فكل فرد يمثل الإنسانية فى شخصه، وهذه الإنسانية التى يحرص الإسلام على حمايتها تتمثل فى احترام كل إنسان للآخر: احترام حريته وكرامته، وحقوقه الإنسانية العامة. وقد ورد فى الحديث الشريف: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه» (رواه الإمام مسلم فى كتاب البر). وجاء فى حديث

آخر: «لا يحل لمسلم أن يُرَوِّع مسلمًا» (رواه أبو داود فى كتاب الأدب). ودعا الإسلام إلى التعايش بسلام بين الشعوب وإلى معاملة غير المسلمين بالعدل والإنصاف، كما يقول القرآن الكريم: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]. ومسئولية الحفاظ على أمن البشر واستقرارهم تعد مسئولية مشتركة بين الناس جميعًا، وتحمل هذه المسئولية هو السبيل إلى الاستقرار والأمن فى مواجهة أخطار الفساد والإفساد.

إن الغرب لا يستوعب مقولة «الإسلام دين التسامح»[٧٨] رغم أنها مقولة صحيحة لأن القرآن ينبه مرارًا وتكرارًا أن اختلاف الناس هو أمر طبيعى، ليس فقط من ناحية اللون، العرق، اللغة، ولكن أيضًا من ناحية المذاهب الفكرية والشرائع، يقول تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]. هذا التعدد الذى أقرته الشريعة الإسلامية هو النقيض التام لعقيدة الكنيسة الكاثوليكية «لا خلاص خارج الكنيسة». بينما تنبأ رسول الإسلام بانقسام أمته لأكثر من سبعين فرقة، وتفرض الآيتان التاليتان «مبدأ التسامح» الذى يميز الإسلام، الأولى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، والآية الثانية: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. فالإسلام هنا ينهى عن التبشير العدوانى الذى تمارسه البعثات المسيحية، حتى رسول الإسلام نفسه نبهه القرآن ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢]. وإذا كان تاريخ البشرية لم يعدم إرهابًا سياسيًا أو مذهبيًا ذا صبغة دينية، فليس للإسلام علاقة بالإرهاب، بالضبط كما أنه ليس للمسيحية علاقة بأتباع حرب العصابات فى شمال أيرلندا، أو الجيش الأحمر فى ألمانيا، أو الألوية الحمراء فى إيطاليا. كما أن تاريخ وحضارة الغرب ملوثان بالدم، ويكفى منه الحربان العالميتان فى القرن الماضى. فهل يجوز لأحد أن يتهم المسيح والمسيحية بذلك؟ إن آية التسامح فى الإسلام هى موقف نبيه الكريم من اليهود والمنافقين بل والمشركين حيث العفو والصفح والتسامح.

لم تجد أمَّة المسلمين بالمدينة المنورة ما يدعو إلى إرغام اليهود على الدخول فى الإسلام، فلا إكراه فى الدين ما دام الرشد قد تبين من الغى، فالأمر فى دخول الناس فى الإسلام مرهون بالهُدَى الذى يرزقه الله لمن يشاء، وما دام الأمر كذلك فليعيشوا مع المسلمين إذا كانوا من أهل المدينة المقيمين فيها قبل الإسلام، لأن الإسلام لا يرضى أن يخرج إنسان من بلده بسبب مخالفته للأمة فى الدين إذا كان مخلصًا صادقًا، بينه وبين المسلمين حلف أو عهد أو ميثاق، بل له أن يشترك مع المؤمنين فى الدفاع عن الأمة ووطنها على أن ينفق من ماله فى الدفاع مع المؤمنين. وكان الرسول ﷺ قد عقد مع اليهود بعد أن استقر فى المدينة وقامت الأمة عهدًا على النصر والأسوة. ويذكر بعض مؤرخى السيرة النبوية الشريفة «أنه شرط لهم، واشترط عليهم». لكن اليهود بدأ القلق يعتريهم بعد الانتصار الكبير الذى حققه المسلمون فى بَدْر بفضل الله وتأييده، فقد ارتفع شأن الأمة وعَزَّ الإسلام، وتدافع الناس يدخلون فيه، فأحس اليهود بالخوف من ذلك الدين الذى يعلو أمره وأمر أمته الناشئة يومًا بعد يوم. بل لقد بلغ الهلع برجل منهم يُسَمَّى كعب بن الأشرف انتابه ما يشبه الحمى من الغيظ، فمضى يؤلب على الإسلام ورسوله ويتعرض لأعراض المسلمين فى شعره ويهجو رسول الله، وساقته عداوته إلى حد الذهاب إلى مكة لتحريض المشركين على المسلمين حتى ضاق به الرسول، لكنه لم يزد على أن تشكَّى منه بقوله: «اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت فى إعلانه الشر وقوله الأشعار» ـ فلم يكد رسول الله يقول ذلك حتى ندب بعض الأنصار أنفسهم لتخليص الإسلام من شره، فقاموا بقتله فى قاع بيته وبين أهله. ويرى الفقهاء أن حكمه حكم المحاربين لإظهار عداوته للإسلام والجهر بذلك.

... ثم جاءت غزوة أحُد وما فيها من ابتلاء واختبار للمسلمين وتَشَفَّى اليهود فرحًا فى مصابهم، حتى أنهم شاركوا فى المؤامرات التى كانت تدبرها قريش للمسلمين على الرغم من عهدهم معهم بالتأييد والمؤازرة. وبعد أن أجلى الرسول يهود «بنى النضير» عن المدينة لعدم التزامهم بعهد الله ورسوله بسبب عداوتهم المستمرة للمسلمين كما أجلى يهود «بنى قينقاع» من قبل فى أعقاب غزوة بَدْر بعد تحديهم للرسول والمسلمين واستطالتهم عليهم، ظل يهود «بنى قريظة» فى المدينة بعد موافقتهم على

تجديد العهد مع الرسول، لكنهم عادوا إلى سابق عهدهم من الغدر والخيانة فنالوا جزاء غدرهم وخيانتهم بتحكيم شريعتهم فيهم، كما أوضحنا من قبل. ويرى الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه «حياة محمد»[٧٩]: «أن دم يهود بنى قريظة معلق فى عُنُقْ حيىٍّ بن أخطب زعيم يهود بنى النضير»، فهو وإن كان قد قتل مع من قتل من محاربى بنى قريظة، فإنه قد حنث فى العهد الذى عاهد قومه من بنى النضير حين أجلاهم النبى عن المدينة ولم يقتل منهم أحداً بعد النزول على حكمه. فإن ابن أخطب بتأليبه قريشًا وغطفان وتحزيبه العرب كلها لقتال المسلمين قد أكد العداوة بين اليهود والمسلمين، وذهب هؤلاء فى اعتقادهم إلى أن بنى إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال النبى ﷺ وصحابته المؤمنين، كان ابن أخطب هو الذى حَمَلَ بنى قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها مع المسلمين والخروج من حيادها إبان غزوة الخندق. ولو أنها بقيت على وفائها بعدها لما أصابها من الشر شىء. كما أن ابن أخطب هو أيضًا الذى دخل حصن بنى قريظة بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن أنفسهم بقتال المسلمين. ولو أنهم بعد كل هذا الغدر نزلوا على حكم الرسول الكريم منذ اليوم الأول واعترفوا بخطئهم فى نقض عهدهم، لَمَا أهْدرَت دماؤهم وضربت أعناقهم. لكن العداوة بلغت فى نفس ابن أخطب مبلغها، وانتقَلت منه إلى نفوس بنى قريظة إلى حدٍّ جعل سعد بن معاذ نفسه ـ وهو حليفهم ـ يؤمن بأنهم إن أبقى على حياتهم لم تهدأ لهم نفس حتى يؤلبوا الأحزاب على المسلمين من جديد، فلم يغتالهم المسلمون كما يقول بعض المستشرقين، بل إن غدرهم هو الذى اغتالهم.

ولو كان النبى ﷺ يسعى إلى قتل من يسىء إليه ـ كما يرى ذلك بعض رواة السيرة[٨٠] ـ لوافق على قتل عبد الله بن أبَى رأس النفاق، أو لانتقم من مُشْركى مكة عندما مكنه الله من رقابهم. وليس أصدق من القرآن الذى أذن بقتال العدو والمعتدى، لكنه لم يأمر بقتل من يؤذى النبى أو المسلمين. بل إنه على العكس من ذلك، فقد أوصى القرآن بتحمل الأذى والصبر عليه، وما كان من المعقول أن يَأمر النبى بقتل اليهود والمشركين أو اغتيالهم كما يدعى المغرضون من أجل أشعار أساءت إليه. وهو الذى أوصى أصحابه بالصبر على المكاره، وتحمل العذاب والاضطهاد حتى يأتى نصر الله، وفى هذا يقول القرآن الكريم: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ

أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

والحقائق كلها تؤكد أنه لا يوجد فى تاريخ البشرية من يطمع فى الوصول إلى ما وصل إليه النبى الكريم فى تسامحه مع أعدائه، فقد عاملهم خير معاملة، وما عاقبهم على ما اقترفت أيديهم. فهذا عبد الله بن أبَى الذى عُرفَ بين المسلمين بكبير المنافقين وكان عداؤه للإسلام أمراً شائعًا. رفض النبى ﷺ اقتراح عمر بن الخطاب بقتله قائلاً: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس، وقالوا: إن محمداً يقتل أصحابه» ـ كان كبير المنافقين يتظاهر بالإسلام، لكن ابنه عبد الله كان مُسْلمًا صادق الإسلام، فلما مات أبوه جاء إلى النبى يتلمس شيئين: قميصه ليكفن أباه فيه، وأن يصلى النبى عليه. فيا له من طلب نبيل لعدو لدود، إن هذا لا يكون إلا للأصدقاء الأوفياء، ولكن قلب النبى الكبير الذى تملؤه الرحمة والعطف والرأفة، كان أكبر من أن يرفض طلبًا فى استطاعته تنفيذه، فأعطاه قميصه ليكفن أباه فيه، وألح عمر فى عدم الصلاة عليه مذكراً النبى بقوله تعالى: ﴿..إن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ..﴾ فأجاب النبى الرحيم بقوله: «سأستغفر أكثر من سبعين مرة» وانهارت عداوة المنافقين بموت كبيرهم بعد أن عملوا جاهدين لينالوا من الإسلام، وانتشر الإسلام وهم كارهون، وتفتحت قلوب كثير منهم إلى النور، وأصبحوا مسلمين صادقين. ولم تقف رحمة النبى ورأفته على أعدائه من اليهود والمنافقين فقط بل تعدتهم لتشمل المشركين أيضًا، فها هو يصفح عن أهل مكة الذين آذوه واضطهدوا أصحابه وتآمروا على قتله وأخرجوه وحاربوه، ها هو يقول لهم يوم فتح مكة «اذهبوا فأنتم الطلقاء» فيأسرُ برحمته قلوب الكثيرين الذين اهتدوا بفضل خلقه وسموه إلى نور اليقين.

سورة التوبة ومغزى إعلان الحرب على المشركين

نزلت سورة التوبة «براءة» قبل وفاة الرسول الكريم بخمسة عشر شهراً، أى بعد مرور اثنين وعشرين عامًا على بدء الوحى. ولهذه السورة الكريمة هدفان أساسيان إلى جانب الأحكام الأخرى الواردة بها، **أول هذه الأهداف:** بيان القانون الإسلامى فى معاملة المشركين وأهل الكتاب، أما **الهدف الثانى:** فهو إظهار ما كانت عليه نفوس

المسلمين حينما استنفرهم النبى لغزو الروم «غزوة تبوك». والذى نحتاجه فى هذا البحث هو الهدف الأول من السورة الذى يشير إلى معاملة الإسلام للمشركين وأهل الكتاب، فقد عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت حدّا لها، ومنعت حج المشركين لبيت الله الحرام، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين، ووضعت الأساس فى قبول بقاء أهل الكتاب فى الجزيرة العربية، وإباحة التعامل معهم. وقد كان بين النبى ﷺ والمشركين عهود ومواثيق، كما كانت بينه وبين أهل الكتاب عهود أيضًا. ولكن المشركين نقضوا العهود وتآمروا مع اليهود عدة مرات على حرب المسلمين، وخانت طوائف اليهود «بنو قينقاع» و «بنو النضير» و «بنو قريظة» ما عاهدوا عليه رسول الله، ونقضوا عهودهم معه مرات ومرات. فلم يعد من الحكمة أن يبقى المسلمون متمسكين بالعهود وقد نقضها أعداؤهم، فنزلت السورة الكريمة (براءة أو التوبة) بإلغاء تلك العهود ونَبْذها على وضوح وبصيرة؛ لأن الناكثين بعهودهم لا يتورعون عن الخيانة كلما سنحت الفرصة لهم، وبذلك قطع الله ـ تعالى ـ ما بين المسلمين والمشركين من صلات، فلا عهد ولا تعاهد ولا سِلْمَ ولا أمان بعد أن منحهم الله فرصة كافية فى السياحَة فى الأرض أربعة أشهر ينطلقون فيها آمنين، ليتمكنوا من النظر والتدبر فى أمرهم، ويختاروا ما فيه مصلحتهم. كما كشفت السورة الغطاء عن فتَن المنافقين، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين، ففضحت أساليب نفاقهم، وألوان فتنتهم، وتخذيلهم للمؤمنين، وتركتهم بعد هذا الفضح وهذا الكشف تكاد تلمسهم أيدى المؤمنين. فهذه السورة الكريمة قد تناولت «الطابور الخامس»[٨١] المنْدَس بين صفوف المسلمين، ألا وهم المنافقون الذين هم أشد خطراً من المشركين.

وطوال سنوات الدعوة إلى الإسلام منذ بدء الوحى وحتى نزول السورة كانت السياسة المتبعة خلالها فى معاملة أعداء الإسلام سياسة مُسَالَمَة لا إكراه فيها على دين ولا مبادأة فيها بهجوم، لكن أعداء الإسلام من مشركين وكتابيين رفضوا مسيرة الدعوة المسالمة واشتبكوا فى قتال مع المسلمين انتهى بهزائمهم المتكررة. ويُوَضِّح الشيخ **«محمد الغزالى»**[٨٢] أن بعض الناس تَعَسَّفوا فى تفسيرهم للسورة، فهو يَقْسمُ الجملة قسمين يأخذ بأولها وينسى آخرها ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً...** ﴾

[التوبة: ٣٦] وناسيًا بقيتها ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ ومثل فهمه كلمة «الناس» فى قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] فقد فهم أن كلمة الناس تعنى البشر قاطبة!! ونسى الاستثناء والتعقيب الواردين بعد هذا العموم، وهما: **أولاً:** الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا...﴾ [التوبة: ٤] فالمعنى واضح حاسم فى أن الحرب ضد قوم معينين ظاهروا علينا العدو واستباحوا حقوقنا، وهل علينا من جناح فى حرب هؤلاء؟ **ثانيًا:** التعقيب وهو بالغ الأهمية، ذلك أنه فى أثناء تأديب المعتدين يظهر أقوام لا ناقة لهم فى الحرب ولا جمل، لا يريدون قتالاً ولا يفكرون فيه - هؤلاء أمر الرسول بتأمينهم وطمأنتهم وإعادتهم سالمين إلى أرضهم ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦] فأين الحرب الهجومية فى هذا السياق النبيل؟

ويبدو أن الذين فهموا أن السورة تُمَثِّل «إعلان حرب عامة على الكفر، نظروا إلى القتال الذى وقع بعد ذلك فى مصر والشام والعراق، وامتد حتى قضى على دولة الفُرْس، وقصم دولة الروم وهذا الفهم الخطأ كان له ما يبرره لو أن المسلمين وجهوا جيوشهم إلى القسطنطينية والمدائن مباشرة، ولكن هذه الإمبراطوريات الباغية كانت تحتل أراضى ليست لها، وتستذل جماهير مغلوبة على أمرها، فدارت الحروب معها على تحرير الأراضى والشعوب ومنع الاستغلال والاستذلال. وعرض الإسلام بعد ذلك على الشعوب المحررة التى سرعان ما رغبت فى الدين الجديد ودافعت عنه بأرواحها، فسورة «براءة» - بعد هذا الإيضاح - بريئة من التحريض على العدوان وتشريع الحرب الهجومية على الأبرياء والمسالمين كما يعتقد الناقمون على الإسلام. هذه السورة كانت بمثابة «كشف حساب» لأمة الإسلام التى ستحمل الرسالة بعد وفاة قائدها، وتأكيد لدورها فى العمل على تطهير الأرض من براثن الفساد والاستبداد.

ويذهب الإمام «ابن تيمية»[٨٣] فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] إلى القول بأن:

« . . . ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ أى قاتلوهم كلهم لا تدعوا مشركًا حتى تقاتلوه، فإنها أنزلَت بعد نبذ العهود، وليس المراد قاتلوهم مجتمعين أو جميعكم، فإن هذا لا يجب، بل يقاتلون بحسب المصلحة، والجهاد فرض على الكفاية. فإذا كانت فرائض الأعيان لم يؤكد المأمورين فيها بكافة، فكيف يؤكد بذلك فى فروض للكفاية، وإنما المقصود تعميم المقاتلين. . . ».

بينما يوضح الإمام ابن كثير[٨٤] فى تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣] أن الله ـ تعالى ـ أمر المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين فى جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم الجزيرة العربية، ودخل الناس من سائر أحياء العرب فى دين الله أفواجًا شرع فى قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل كتاب فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال، وذلك سنة تسع من هجرته ﷺ. وإذا كانت آية السيف[٨٥] قد نسخت ثلث القرآن من أجل رفع القهر عن الناس، والإيمان بالله وحده، فإن القتال قد يقع اضطراراً، كما لا قى الرسول من أذى الكفار فاضطر للقتال، وكُتِبَ على الناس وهو كره لهم. وقد خير الإسلام الناس بين الإسلام والجزية من أجل صَون النفوس. أما القتال، فهو من أجل تحرير الأرض من الشرك والطغيان والعدوان على الناس ماديّا ومعنويّا، لذلك خيم العدل المطلق على فتوحات الإسلام بمبادئه وليس بالقهر والسيف كما يدَّعى الغرب. وعَمَّ الإسلام جزيرة العرب ولم تقم إلا غزوات محدودة اتقاءً لطغيان قريش حتى عام الفتح. وانتشر الإسلام فى اليمن بدون قتال. ولم تتجاوز جيوش أبى بكر وعمر أربعين ألف مقاتل. ودخل الإسلام الشام وفلسطين وحلب والعراق ومصر وفارس حتى الصين دون أن تكون الحرب فى كل الحالات وسيلة لنشره. ويرى الأفغانى: «أن الآيات التى تُقْرَأ فى القرآن وتَحُث على الاستعداد للقتال مثل: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(*) [الأنفال: ٦٠] فإنها لا تعنى سفك الدماء، بل مجرد التخويف والردع ـ كما يُقال بشأن الأسلحة النووية حاليّا. ويَخْلُص الأفغانى إلى القول: «بأن العنف ليس هو الأصل فى التاريخ بل التسامح، والحرب ليست أداة لتحريك التاريخ إلا دفاعًا عن قوانين التاريخ من «النهضة بالفضائل» إلى «السقوط بالرذائل»...».

ويقول الشيخ محمد الخضرى[٨٦]: «لم يقاتل رسول الله أحدًا على الدخول فى الدين، بل كان الأمر قاصرًا على الدعوة. ولم يكن الرسول يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب. فلما تمالأ على المسلمين غير أهل مكة من مشركى العرب، واتحدوا عليهم مع الأعداء. أمر الله بقتال المشركين كافة بقوله فى سورة التوبة: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. وبذلك صار الجهاد عامّا لكل من ليس له كتاب من الوثنيين، وهذا مصداق قوله عليه الصلاة والسلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله» متفق عليه ـ من حديث عبد الله بن عمر. فالمقصود بالناس فى حديث الرسول الكريم هم المشركون دون سواهم، وليس كما يذهب المغرض من المستشرقين إلى القول بأنه أمر بقتال الناس جميعًا، فالأمر بالقتال موجه للمشركين دون سواهم لعدوانهم على المؤمنين؛ لأنه لا تناقض فى القرآن، والقاعدة الراسخة هى عدم الإكراه فى الدين».

الرَّد على أكذوبة انتشار الإسلام بالسيف

يذهب العديد من المستشرقين ومعهم عدد من المغرضين إلى القول باتهام الإسلام أنه لم ينتشر إلا بحد السيف، على الرغم من كل الوقائع والحقائق التاريخية التى تكذب هذا الزعم كل التكذيب. والحقيقة الواضحة هى انتشار الإسلام على الرغم من

(*) «الردع أو الترهيب» الوارد فى الآية الكريمة يعنى الاستعداد بكل مظاهر القوة العسكرية من أسلحة متنوعة.. تدعمها قاعدة علمية وتكنولوجية قادرة على تصنيعها وتطويرها.. ويقف من وراء كل هذا قوة اقتصادية ومالية تقدم الموارد والإمكانيات اللازمة للبحث العلمى فى كافة المجالات. [المؤلف].

السيف المشهور فى وجهه متحديًا كل الصعاب والأهوال، وما ثبت دين فى العالم أمام الاضطهاد كما ثبت الإسلام. فقد أحاط السيف بالإسلام من كل جانب فما نال منه، بل كان ذلك أدعى لانتشاره وذيوع أمره. لقد هوجمت المدينة المنورة ثلاث مرات فى بدر وأحد والأحزاب بقصد البطش بالإسلام، وكان كل هجوم أقسى من سابقه وأشد، فلم تضعف قوة الإسلام. بل كان عدد المسلمين الذين يخوضون المعارك فى تزايد مستمر، ففى غزوة بدر كان عددهم ثلاثمائة، وفى أحُد بعد بَدْر بعام واحد، كانوا سبعمائة أى أكثر من الضعف، وبلغوا ما يقرب الألفين فى غزوة الأحزاب. هذا التزايد المطرد الملحوظ يتناسب مع عنف الهجوم على الإسلام، فكلما زادت محاولات القضاء عليه زاد دخول الناس فيه. لقد كانت يد الله تظاهره، وتشد أزره، فكان عدد الداخلين فيه يتزايد يومًا بعد يوم على الرغم من السيف المسلط على الرقاب.

إن اتهام النقاد المعادين للإسلام بأنه هَدَى الناس بالسيف هو ادعاء باطل يجانب الحقيقة والصواب، فلم يحدث قط أن هدى السيف إنسانًا إلى الحق. فقد كان النبى ﷺ يعتمد فى نشر دينه على أصحابه من المتفقهين فى الدين، وهم من حفظوا آيات القرآن الكريم، فكان يبعث بهم لنشر تعاليم الإسلام بين القبائل المختلفة ـ لكن بعض الخونة من المشركين كانوا يستدعون الحفاظ بقصد التفقه بالدين، ثم إذا خلوا بهم اغتالوهم غدرًا وظلمًا. هذه الأحداث المؤسفة حدثت فى «بئر معونة»، حيث تم اغتيال سبعين من الرجال الأبرار الذين كانوا يحملون رسالة السماء، ولم ينج منهم سوى رجل واحد فَرَّ إلى النبى ليحمل الخبر الفاجع إليه. كما وقعت مأساة شبيهة فى «الرجيع» قُتلَ فيها عشرة من كبار صحابة النبى الكريم، وحزن النبى حزنًا شديدًا على هؤلاء الرجَال الأوفياء لعقيدتهم، الذين راحوا ضحية الخيانة والغدر. كل هذا وبلاد العرب عن بكرة أبيها تغلى بنار الحقد والكراهية للدين الجديد، وعقد اليهود والمنافقون وعبدة الأوثان العزم على إبادة المسلمين، فأين السيف الذى شرعه الإسلام لنشر تعاليمه كما يَدَّعى المبطلون؟!!!

لقد أجيَز القتال للنبى ﷺ لا لغرض إرغام المشركين على قبول الإسلام، كما يقول بذلكَ غلاة المتطرفين فى انتقادهم للإسلام ـ فهو عمل يتنافى مع روح التسامح التى كان يعمل النبى على نشرها، بل لإقامة حرية العقيدة ولوقف الاضطهاد الدينى،

ولحماية أماكن العبادة لكل الأديان، والمساجد من بينها؛ لقول القرآن: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا** ﴾ [الحج: ٤٠]. إن كل دارس للتاريخ الإسلامى يعلم أن النبى وأصحابه، ذاقوا من الاضطهاد، والإيذاء ما لم يتحمله بشر، واضطروا إلى الهجرة بدينهم مرة إلى الحبشة ومرة إلى يثرب، فما تركتهم قريش، بل خرجت وراءهم فى كل مرة لقطع دابرهم ودابر الإسلام، فلما جاء الإذن من الله ـ تعالى ـ بالقتال: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...** ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠] أوضح القرآن طبيعة هذا القتال بأنه مُوجَّه لمن يقاتلون المسلمين، ناهيًا عن العدوان، فالله لا يحب المعتدين. وكانت غاية الإذن بالقتال والهدف منه هو نصر الفئة المؤمنة وإنقاذها من أيدى معذبيها الباطشين بها. فلم تكن القسوة ـ إذن ـ هى الباعث على القتال، ولم يكن ظمأ هذا الدين الجديد إلى الدماء ـ كما يدعى عدد من المستشرقين ـ لكنه الحزم الذى يأخذ به القائد من أمور جماعته ما يجنبها الضر، ويبعد بها عن أن ينالها سوء. وها هو الرسول الكريم يعفو عن مشركى مكة وقد آذوه وعذبوا أصحابه، وائتمروا به ليقتلوه من قبل، ثم قاتلوه فى بَدْر وفى أحُدْ وألَّبوا عليه أحزاب العرب يوم الخندق، ولو تمكنوا منه لفتكوا به وبأصحابه، فهذه شيمة الرسل وعفو الأنبياء، فالعفو كان عند المقدرة. ألم يكن قادراً بدلاً من أن يعفو أن يضطرهم ويكرههم على الدخول فى الإسلام؟!! لكنه عفا وصفح، وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». فما كان لرسول الله ﷺ وأتباعه المؤمنين أن يخالفوا تعاليم القرآن الصريحة التى لا تحتمل لبسًا ولا تأويلاً ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فيذهبوا إلى إكراه مخالفيهم وأعدائهم على الدخول فى الإسلام. أما استخدام السيف، فكان بأمر الله لإزالة القوى المادية التى تقف فى سبيل الدعوة السلمية إلى الدين، وتحول دون انتشار كلمة الله بين الناس والتعرف على دعوة الإسلام. فإذا أزيلت تلك القوى الحاجبة الباغية، فالناس أحرار بعد ذلك فى أن يعتنقوا الإسلام أو يبقوا على عقيدتهم بغير إكراه، لكن وبشرط واحد هو عدم عدوانهم على المسلمين، هذا الشرط يمثل الحد الفاصل بين الحق والباطل فى قضية استخدام السيف.

ويؤكد الواقع المعاصر ـ كما تؤكد حقائق التاريخ ـ أن المسلمين لم يستخدموا السيف

قط لإكراه الناس على اعتناق الإسلام. والدليل الذى لا يقبل الشك حول هذا الأمر أن المسلمين حكموا الأندلس ثمانية قرون فلم يحدث ولو مرة واحدة أن أكرهوا فرداً واحداً على اعتناق الإسلام، إنما دخل فى الإسلام طواعية وحبّا واقتناعًا وتأثرًا بالحضارة الإسلامية الزاخرة. وحكم المسلمون الهند أيضًا ثمانية قرون فلم يجبروا أحداً حتى عُبَّاد البقر[٨٧] على ترك ديانتهم. كما أن وجود نصارى حتى هذه اللحظة فى مصر والشام بعد مرور أربعة عشر قرنًا من الحكم الإسلامى دليل لا يقبل الشك على عدم الإكراه فى الدين. ولم يحدث قط وفى ظل الحكم الإسلامى أن قامت حرب إبادة كالتى أقامها مسيحيو الأندلس للمسلمين واليهود قديمًا، أو كالتى أقامها الصرب ضد شعب البوسنة المسلم فى عصرنا الحاضر.

لقد استخدم المسلمون السيف بأمر ربهم ـ لا من عند أنفسهم ـ لإزالة الطغيان الذى يمنع الناس من رؤية الحق، هذا الطغيان والجبروت الذى مارسته إمبراطوريتا فارس والروم، ليتسنى للناس معرفة الحق بلا حواجز من سلطة طاغية متمثلة فى نظام تقوم عليه دولة وتحميه جيوش، ويجثم على قلوب الناس بتقبل الأمر الواقع، فيحول بين القلوب وبين أشعة نور الإيمان من أن تصل إليها، فإذا ما تمت إزالة هذا الحاجز المادى الباطش، شاهد الناس النور على حقيقته، وهم أحرار فى اتباعه أو الإعراض عنه، فالقلوب لا يمكن أن تُكْرَه على الإيمان، وفى هذا يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه الكريم: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

إن ادعاء كثير من الغربيين بأن آية: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ من أوائل ما نزل من القرآن فى مرحلة ضعف الإسلام والمسلمين فى «الفترة المكية» يمثل خلطًا كبيراً وتشويهًا للحقائق؛ لأنها من أواخر الآيات التى نزلت والإسلام فى المدينة فى دولة مكتملة قادرة على الدفاع عن العقيدة. إن هذه الآية بمثابة «وسام» على صدر كل مسلم يفاخر به الحضارات الأخرى التى تنشر ثقافاتها بإبادة الآخرين واستئصال عقائدهم. إن هذه الآية الكريمة تعد بمثابة الحاجز المنيع الذى يحول بين المسلم وبين أن يتصور إمكانية اجتماع الناس على عقيدة واحدة. لهذا، فإن الإنسان المسلم لا يتصور اجتماع الناس على دين واحد، ولو كان هذا الدين هو الإسلام ذاته. لذلك لم تعرف حضارة المسلمين العنف ونفى الآخرين، ولم يذكر التاريخ أن المسلمين كانوا يحررون

المستضعفين من أجل استعبادهم والاستيلاء على مقدراتهم. ويجب التذكير بأن المنصفين من المستشرقين أكدوا فى كتاباتهم أن القتال فى الإسلام لم يكن أبدًا لتغيير الأديان، أو فرض عقيدة الإسلام على أهل دين آخر. ولم يذكر التاريخ أبدًا أن المسلمين كانوا يباغتون الآخرين ويقولون لهم: إمَّا الإسلام، وإمَّا السيف. وهذه قضية شديدة الوضوح فى التاريخ لولا الأكاذيب المتعمدة والتشويه المقصود. والحقيقة المؤكدة[٨٨] أنه لو أن القرآن الكريم أو السُّنة النبوية أشارت مجرد إشارة إلى فرض الإسلام وحضارته على الناس بالسيف لما بقى غير المسلمين فى البلاد التى فتحوها، ولما قبل المسلمون المنتصرون بقاء الآخرين على أديانهم نظير ضريبة رمزية لا تغنى الغالبين ولا تفقر المغلوبين. وينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن إقرار الآخرين على أديانهم يستلزم فى الوقت ذاته إقرارًا مماثلاً لحضارة هذه الأديان وأنماط حياتها، مما يبرهن على أن الإسلام لا يضيق بالأديان الأخرى ولا بحضاراتها، ويتقبلها حتى وإن اختلف معها. وعلى المنصف أن يقارن بين هذه الصورة التى أرادها الإسلام، وبين صورة المسلمين المضطهدين فى الأندلس حين فُرِضَ عليهم التحول إلى «الكثلكة» والارتداد عن الإسلام بالعنف والقسر والاضطهادَ - فيما عُرِفَ وقتها باسم الموريسكيين أو «العرب المتنصرين».

لقد روى المؤرخون الإسبان أن آباء الكنيسة الكاثوليكية فى ذلك الوقت شكَّلوا ما يسمى بـ «ديوان التحقيق» لمتابعة المسلمين الذين أجبروا على التنصير والارتداد إلى الكثلكة، وأحصوا عليهم أنفاسهم، وكانت المحاكم الدينية تحكم بالقتل على المسلم المتنصر إذا ما بدا منه أى تصرف أو سلوك ينم عن احتفاظه بعقيدته فى قلبه أو حنينه إلى دينه - فكان من أثر هذا الإكراه أن خلت الأندلس من المسلمين إما بجلائهم عن البلاد، أو بارتدادهم إلى الكاثوليكية، أو قتلهم فى حالة بقائهم على دينهم - وهاتان صورتان متقابلتان تمام التقابل بين حضارتين متدابرتين يقف خلف كل منهما كتاب مقدس، وجعل من سياق كل منهما نشر حضارته توجهًا مناقضًا تمام التناقض لتوجه الآخر - فقارن بين دخول المسلمين الأندلس وضمانهم الحرية للمسيحيين واليهود فى العقيدة، وبين عودة المسيحية إليها وكيفية معاملتها للمسلمين واليهود بالإكراه والنفى والاستئصال.

يقول الأستاذ العقاد[٨٩]: «ينبغى للمؤرخ المنصف أن يَذْكُر أن المسلمين كانوا ضحية السيف قبل أن يغلبوا به أعداءهم، فكان الإقناع سابقًا للدفاع، ولم يأت الدفاع إلا حين بطل الإقناع، فإذا جاء القتال بعد رفض الدعوة ورفض المعاهدة، فالاعتراض عليه إنما هو اعتراض على كل دعوة من أساسها، وإنما هو رأى ينهى كل مصلح أن يخرج لدعوة الإصلاح، ولا نكران أن الإسلام يأبى هذا الاعتراض ويأبى هذا النهى؛ لأن الدعوة إلى الخير واجبة فيه على كل بيئة وبين كل طائفة، لا استثناء فى ذلك للطوائف الإسلامية ولا لغيرها، بل هو شرع جهاد الفقه والعلم إلى جانب جهاد السيف والقوة...». فالإسلام يوجب الدعوة إلى الخير وينظر إلى السّلْطة التى تقف فى سبيلها نظرة عداء، ويعاملها معاملة من لا أمان له، إلا أن تعاهده على الأمان فلها مثل ما له وعليها مثل ما عليه. ويستطرد العقاد قائلاً: «وعلى كل منصف أن يدرك أن أسباب الجهاد فى صدر الإسلام كلها كانت مردّا للعدوان أو تأمينًا للحدود وفى هذا كان أئمة المسلمين السابقين يعملون بما يوافق الحديث الشريف فى رواية «عبد الله بن عمر» عن النبى ﷺ أنه قال: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا من ذكر الله، فإن أجلبوا وضجوا فعليكم بالصمت».

... فى رواية أخرى عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس، فقال: «يا أيها الناس، لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. ثم قال: اللهم مُنْزِّل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم» ـ رواه البخارى ومسلم. ويقول الدكتور بكر إسماعيل[٩٠] فى شرح هذا الحديث: «تؤكد كل الدلائل على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، ولم يكن رسول الله ﷺ يقاتل إلا إذا قوتل، فما كان يومًا مهاجمًا قومًا إلا إذا رأى منهم بادرة عدوان. وكان إذا لقى العدو دعاه إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن أبى أن يدخل فى الإسلام دعاه إلى الصلح ودفع الجزية من أجل حمايته وبقائه فى أرضه متمتعًا بالسلام فى ظل الإسلام. فإن أخذ جانب العناد وأصر على القتال قاتله بكل قوة وهو يتمنى من أعماق قلبه ألا يقاتله، ولكنه كان يخضع لأمر الله تبارك وتعالى، ويرضى بقضائه وقدره، فيرد العدوان وينتظر النصر من الله...». ويوضح معنى قول الرسول «اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» بأنه من مات شهيدًا فسيلقى الجنة فور

استشهاده، وكأنه ليس بينه وبينها إلا كظل سيفه، فإن وقع سيفه من يده واستشهد، وقع هو فى الجنة مباشرة - وهذا القول من الرسول الكريم يعبر به عن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وعندما ينبه الإسلام من خلال قرآنه الكريم على أن الإكراه فى الدين مرفوض - لأن الإكراه لا يثمر إيمانًا حقيقيًا بالله - فإنه يُعَلِّمُنا حقيقتين هامتين:

الأولى: أن ما شهده تاريخ انتشار الأديان - خصوصًا قبل ظهور الإسلام - من حروب أكرهت أقوامًا على اعتناق الدين هى بمثابة حروب سياسية لا علاقة لها بالدين، حتى وإن رفع أصحابها أعلام الدين وألويته.

الثانية: أن الجهاد فى سبيل الله هو أعم وأشمل من القتال؛ لأنه يشمل بذل ما فى الوسع من القول والفعل، واحتمال المشقة بوجه عام. والقتال ليس سبيلاً من سبل الدعوة إلى الدين، وإنما هو - الجهاد القتالى - أداة دفاعية يستخدمها المسلمون لحماية حرية الدعوة وحرية الاعتقاد إذا اعتدى عليها المعتدون. «فالجهاد[٩١] من الدين بهذا الاعتبار ليس من جوهره ومقاصده، وإنما هو سياج له . . .». فالقتال ليس دينًا وليس ركنًا من أركان الدين وليست له طبيعة وفلسفة دينية، ولا هو من جوهر الدين ومقاصده، وإنما هو أمر سياسى علاقته بالدين لا تتعدى علاقة السياج اللازم لحرية الدعوة إلى الدين وحرية الدعاة وحرية الاعتقاد.

يوضح الدكتور محمد عمارة أن الحروب التى نشبت بين المسلمين وبعضهم البعض لم تُرْفَع فيها رايات الدين، بل كانت بمثابة خلافات ناتجة عن الصراع الداخلى حول شئون السياسة والحكم، فلم تكن حروبًا دينية بين مذاهب مختلفة داخل الدين الواحد كما حدث فى أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت، بل كانت صراعات سياسية على شئون الدنيا بعيدة عن جوهر الدين».

. . . يقول الدكتور محمد حسين هيكل[٩٢]: «أن الإسلام لم يأخُذْ بالسيف، ولذلك لن يُؤْخذ بالسيف». وأوروبا المسيحية قد أخذت بالسيف فى العصر الأخير إمعانًا فى الإباحية والترف. فأوروبا المسيحية تقوم اليوم بالدور الذى قام به المغول والتتار حين اتشحوا ظاهرًا برداء الإسلام، ثم فتحوا الممالك دون أن يبعثوا بتقاليد

الإسلام فيها، فحقت عليهم وعلى المسلمين الكلمة، وكان هذا التدهور والانحلال الذى أصاب الشعوب الإسلامية. لكن أوروبا المسيحية اليوم أقل فضلاً من أولئك التتار والمغول، لأن الممالك التى فتحها هؤلاء سرعان ما دخلت فى الإسلام حين رأت عظمته وبساطته، أما أوروبا فلا تغزو لنشر عقيدة ولا لتدعو إلى حضارة، إنما هى تريد استعمارًا، وتريد أن تجعل من العقيدة المسيحية مطية هذا الاستعمار، لذلك لم تنجح الدعاية التبشيرية الأوروبية لأنها دعاية غير مخلصة، وهى لم تنجح ولن تنجح فى الأمم الإسلامية خاصةً لأن عظمة الإسلام وبساطته وأخذه بحكم العقل والعلم لا تجعل لأية دعاية دينية أملاً فى النجاح بين أبنائه».

ويوضح الدكتور شوقى ضيف[٩٣]: «أن مؤرخى السيرة النبوية لم يكونوا دقيقين فى عرضهم لحروب الرسول وغزواته؛ لأنهم قالوا إن غزوات الرسول بلغت سبعًا وعشرين غزوة، والصحيح أنه ﷺ لم يحارب إلا فى تسع غزوات فقط، منها غزوات لم يحدث فيها التحام بين الجيوش مثل غزوات الخندق وقريظة وفتح مكة وتبوك... هذه المبالغة جعلت بعض المستشرقين يظن خطأ أن الرسول كان متعطشًا لسفك الدماء وأنه نشر الإسلام بالسيف، وهو أمر عار من الصحة لأن حروبه كلها تحكمها قوانين رحيمة لم يسبقه إليها أى دين سماوى آخر...». ويؤكد الأستاذ محمد قطب[٩٤]: «أن من أعظم الأباطيل التى يستخدمها المستشرقون لفتنة المسلمين عن حقائق دينهم قولهم إن الإسلام انتشر بالسيف، ولا يكاد يوجد واحد من المستشرقين لا يشير إلى هذه القضية ويتكئ عليها ـ بل إن أحدهم ـ ويُدْعَى «روبرت بين» ألف كتابًا كاملاً فى تاريخ الإسلام سماه «السيف المقدس ـ The Sacred Sword» وظل يردد فى كل فصل من فصوله أن الإسلام انتشر بالسيف، ويَدَّعى هذا المستشرق أن المسلمين قد غزوا الدنيا كلها من قبل، وقد يفعلونها مرة ثانية...».

يَشْرح الإمام محمد عبده[٩٥] كيف «كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة اتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها، يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على الدين الظافر. وبرهانهم الغلبة، وحجتهم القوة، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين، ولم يعهد فى تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون، لهم وظيفة ممتازة، يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره، ويقفون مساعيهم على بث عقائده بين غير المسلمين. بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم

فى المعاملة. وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلاً وإحسانًا عندما كان يعدها الأوروبيون ضعة وضعفًا... لقد رفع الإسلام ما ثقل من الإتاوات، ورد الأموال المسلوبة إلى أربابها، وانتزع الحقوق من مغتصبيها، ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم. إن سرعة انتشار الدين الإسلامى وإقبال الناس عليه والاعتقاد به من كل ملة، إنما كان لسهولة تعقله ويسر أحكامه وعدالة تشريعه...». بينما يؤكد المفكر الفرنسى المسلم روجيه جارودى[٩٦]: «أن الإسلام لم ينتشر بالقوة، وإنما بفضل ما حققه من يقظات دينية، وثورات اجتماعية، وتحولات ثقافية...».

.. إن واقع التاريخ يؤكد أن الإسلام قام على الإقناع، وأن النور الذى أنْزلَ على نبى الإسلام قد بين للناس طريق الخير وطريق الشر، وقد فطن بعض المفكرين الأوروبيين إلى سخف دعوى انتشار الإسلام بالقوة والإكراه. فهذا توماس كارليل[٩٧] فى كتابه «الأبطال» يتحدث عن النبى الكريم قائلاً: «إن اتهامه بحمل الناس على الدخول فى الدين الذى جاء بالقوة والقهر سخف لا يقبله عقل، فكيف يمكن أن يتصور أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبون لدعوته؟...». ويقول هنرى دى كاسترى فى كتاب «الإسلام خواطر وسوانح»[٩٨]: «إن استطلاع حال هذا الدين فى العصر الحاضر لا يُبْقى أثرًا لما زعموه من أنه انتشر بحد الحسام، فلو كان دين محمد ﷺ انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين... مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه فى جميع أرجاء المعمورة». ويفنِّد «إدوارد جيبون» فى كتابه «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها»[٩٩] هذه الأكذوبة بقوله: «إن عبقرية محمد جديرة منا بكل إعجاب. ولكن نجاحه هو الذى جذب إعجابنا بدرجة فائقة... وليس انتشار دينه هو الذى يدعو إلى العجب والدهشة، وإنما بقاؤه. فإن نفس الطابع النقى الكامل الذى نزل به فى مكة والمدينة لا يزال محفوظًا ـ بعد مرور اثنى عشر قرنًا من الثورات والتقلبات ـ فى قلوب المؤمنين بالقرآن من هنود وأفريقيين وأتراك». ويقارن جيبون بين احتفاظ الإسلام بنقائه وبين ما حدث للمسيحية من تبديل، فيقول: «لو أن الرسولين القديسين بطرس وبولس استطاعا أن يعودا إلى الفاتيكان لسألا عن اسم الإله الذى يُعْبَد فى هذا المعبد الفخم بهذه الطقوس الخفية، وقد تصيبهم دهشةً أقل فى أكسفورد وچينيف، وربما كان

عليهما أن يتصفحا عقيدة الكنيسة وأن يَدْرُسَا تعليقات أساقفة المسيحية التى دُوِّنَتْ على كتاباتهما وعلى كلمات معلمهما «السيد المسيح» . . . » . ويؤكد جيبون : «أن السلام الذى نشر لواءه بين المسلمين والمسيحيين أكثر من أربعة قرون كان مؤسسًا على تسامح الإسلام وتعاليمه نحو الخير والسلام «السلام الإسلامى ـ pax islamica» ويدحض المستشرق الإنجليزى «مونتجمرى واط»[١٠٠] مقولة انتشار الإسلام بحد السيف، أو فرض الإسلام قسرًا على شعوب البلاد التى دخلت تحت لواء الإسلام، مؤكدًا على التمييز فى المعاملة بين البلاد التى فتحت عنوة، وتلك التى فُتِحَتْ صُلْحًا، وعلى وضع أهل الذمة، وتبنى الفاتحين العرب للنظم الإدارية التى كانت سائدة عند الفرس والروم، مشيرًا إلى مشاركة القبائل النصرانية العربية فى فتوح الشام وأرض الجزيرة فى العراق. فلم يكن الإسلام عدوانيًا، ولم يكن نبى الإسلام قَيْصَرًا كما يدعى المستشرق الأمريكى الإنجليزى الأصل برنارد لويس، ولم ينف الحكم الإسلامى وجود غير المسلمين طالما كانوا من أهل الكتاب الذين يؤمنون بوحدانية الله، بل إنه عندما امتد الإسلام شرقًا ليضم الزرادشت والبوذيين اعتبرهم من أهل الكتاب، ومد إليهم عهد الذمة، وتأثرت الثقافة الإسلامية بالموروث الثقافى للأقطار التى ضمتها الدول الإسلامية، فكانت تلك التعددية العبقرية التى اتسمت بها الثقافة الإسلامية فى مختلف المجالات.

تقول الكاتبة الأيرلندية كارين أرمسترونج[١٠١]: «الحقيقة أن الإسلام والغرب تجمعهما تقاليد مشتركة منذ عهد النبى محمد، المسلمون يعترفون بهذا، بينما لم يتقبله الغرب. واليوم نجد أن بعض المسلمين بدءوا فى التحول ضد ثقافات أهل الكتاب الذين أهانوهم وأساءوا إليهم، وبدأوا حتى فى أسلمة كراهيتهم تلك، فشخصية النبى محمد المحبوبة أصبحت محورًا لواحدة من الصراعات الأخيرة بين الإسلام والغرب من خلال قضية سَلْمان رَشْدى . . . » . وأضافت الكاتبة : «إذا كان المسلمون فى حاجة للتعرف على تقاليدنا ومؤسساتنا الغربية بشكل أكثر عمقًا فى هذه الآونة . . . فإننا فى الغرب نحتاج إلى أن نتحول عن بعض تحيزاتنا القديمة خصوصًا تجاه شخصية النبى إذا كان من الصعب علينا تقبلها، إلا أنه الرجل ذو الذكاء الخارق الذى أسس دينًا ونسقًا ثقافيًا ونظامًا لم يَقُمْ على السيف ـ وفقًا للأسطورة الغربية ـ هذا النظام المتمثل فى الإسلام . . . الذى يشير اسمه إلى السلام والوئام . . . » .

ويتحدث المؤرخ الإنجليزى «ج. هـ. ويلز» فى كتابه «موجز تاريخ العالم»[١٠٢] عن الأسباب الحقيقية لانتشار الإسلام بعيدًا عن ادعاءات المغرضين، فيقول: «... من عناصر قوة الإسلام التى تؤدى إلى سرعة انتشاره أنه يحتوى على الشىء الكثير من القوة والإلهام... فمن خصائصه التوحيد الذى لا هوادة فيه، وإيمانه البسيط المتحمس بحكم الله للناس، وخلوه من التعقيدات اللاهوتية، وإصراره على أن المؤمنين جميعًا إخوة متساوون تمامًا أمام الله، مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أو مراكزهم... هذه هى الأمور التى جعلت من الإسلام قوة فعالة فى الشئون الإنسانية...». ويستطرد ويلز قائلاً: «لقد ساد الإسلام وانتشر لأنه أفضل نظام اجتماعى وسياسى عرفته العصور، لقد منح العرب للعالم ثقافة جديدة، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية فى العالم...». **ولنا أن نتساءل الآن فى مواجهة كل من يردد تلك الأكذوبة أو الأسطور من مستشرقين ولاهوتيين وغيرهم: كيف يمكنكم تفسير انتشار الإسلام الآن فى قلب أوروبا وأمريكا وغيرها من البلدان؟ وأين هو «السيف الإسلامى» المُشْرَع فى وجه هؤلاء المؤمنين لإكراههم على اعتناق الدين؟.. إنها «القوة الكامنة فى الإسلام» الذى ينتشر الآن ويزداد انتشاره رغم حالة الضعف والتخاذل التى تنتاب المسلمين.**

.. كما يُفَنِّد المحلل السياسى والدبلوماسى السويدى «إنجمار كارلسون»[١٠٣] فى كتابه «الإسلام وأوروبا.. تعايش أم مجابهة؟» الادعاءات الغربية العدائية الرامية إلى تضخيم «خطر المد الإسلامى» مشيرًا إلى «أن تعاظم الظاهرة الأصولية ليس دليلاً على خطة شاملة لاجتياح الغرب تحت راية الحرب الدينية(*) «الجهاد».. إذ ليس هناك ما يدل فعلاً على مثل هذه الخطة.. كما أنه ليس هناك أحد من القادة الإسلاميين فى وضع يؤهله أو يمكنه من التخطيط لمثل هذه الحرب الشاملة.. فالتناقضات والعداوات المتبادلة بين مختلف الفصائل والمجموعات الأصولية أقوى من عدائها للغرب.. ولذلك لا يمكن لأحد الحديث عن نهوض إسلامى عالمى، بل ينبغى القول: إنه من «الدار البيضاء» على ضفاف المحيط الأطلسى غربًا إلى «آلما آتا» على حدود الصين شرقًا يجرى تكوين الحركات الإسلامية على أساس المصالح القومية لدولها.. وعليه

(*) ليس فى الإسلام «حرب دينية» أو «حرب مقدسة ـ Holy War»، فهى مصطلحات غربية ولا يوجد فى الإسلام إلا الحرب المشروعة والعادلة. انظر مبحث «تأصيل المفاهيم». [المؤلف].

«فالإسلام السياسى» ليس واحداً ولا موحداً فى مواجهة الغرب. . ولا يشتغل كوسيلة مناورة «جيو- سياسية». إنه «ظاهرة اجتماعية» ذات جذور سياسية داخلية نشأت من جراء الهجرة الواسعة من الريف إلى المدن وتصاعد البؤس وفقدان الجذور وأزمة الهوية وانهيار نظم التعليم. . والتفاوت الهائل بين الدول الغنية والدول الفقيرة. . والتفاوت بين الفئات المرفهة والفئات المسحوقة فى هذه المجتمعات».

ويذهب «كارلسون» إلى القول بأن تحوّل الإسلام إلى عدو للغرب إنما يتوقف فى المقام الأول على الأوروبيين أنفسهم؛ لأن العنصرية وعدم التسامح والقومية المتزمتة تستفحل بشدة فى سائر أنحاء أوروبا كرد فعل على الهجرة إليها. . داعيًا إلى سياسة هجرة أوروبية لا تؤدى إلى عزل المسلمين فى «جيتواتهم» بل تمهد لنشر «إسلام أوروبى» يتميز بالتسامح ويمثل جسراً بين أوروبا وجيرانها المسلمين. ويُحَذِّر «كارلسون» من مقولة «هنتنجتون» حول صراع الحضارات بأن «للإسلام حدوداً مخضبة بالدماء» موضحًا أن هذه المقولة ليست فقط رمزية تاريخية، ولكن لها خطورتها أيضًا، «فالإسلام والمسيحية عاشا جنبًا إلى جنب لمدة ١٤٠٠ سنة تقريبًا دومًا كجيران. . وخصوم فى أغلب الأوقات. . وكثيراً جداً كأعداء» - وفى الواقع من الجائز اعتبارهما شركاء، حيث يشتركان فى نفس الموروث اليهودى الهيلينى الشرقى وهما فى آن واحد تجمعهما معرفة قديمة. . كما أنهما عدوان لدودان بالوراثة. . والصراعات بينهما مريرة بوجه خاص، ويعود ذلك إلى أصولهما المشتركة. . فزيادة الفُرْقَة بين الجانبين لا ترجع لما بينهما من اختلافات بقدر ما ترجع إلى أوجه الشبه بينهما.

. . ويوضح «كارلسون» أن الإسلام ليس ظاهرة طارئة على الأرض الأوروبية، فقد قامت دولة إسلامية فى الأندلس استمرت ثمانية قرون. . ولها تأثيراتها الإيجابية على الفلسفة والثقافة والفن، وعالجت بصورة مدهشة ذلك التعايش المثمر آنذاك بين الأديان السماوية الثلاثة «اليهودية والمسيحية والإسلام» هذا التعايش الذى تم فى ظل تفوق الحضارة الإسلامية التى كانت بمثابة الشريك المعطاء فى ذلك التعايش. . حيث يُشكل «قصر الحمراء» فى غرناطة شاهداً يرمز إلى تلك الحقبة. . ويُذكرُنا بحقيقة أن «أوروبا الحديثة» ذات جذور إسلامية أكثر بكثير مما ينعكس فى التصورات السائدة. . فأوروبا كما يرى «إنجمار كارلسون» هى نتاج امتزاج الشرق بالغرب.